



مجلة المنتدى الأكاديمي (العلوم الإنسانية)

المجلد (9) العدد (1) 2025

ISSN (Print): 2710-446x ISSN (Online): 2710-4478

تاريخ التقديم: 2025/01/18، تاريخ إرسال التعديلات: 2025/02/23، تاريخ النشر: 2025/03/07

مجاهدة النفس وأثرها في التهذيب بين الفلسفة والتصوف

نورالدين عاشور أحمد الدوكالي

قسم الفلسفة، كلية الآداب، الجامعة الأسمرية، ليبيا

aldokalynad@gmail.com

المستخلص:

هدف البحث إلى سبل مجاهدة النفس اتباعاً لقول الله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۗ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، (سورة الحج: الآية: 78)، وكيفية تهذيب النفس وردعها، ويهدف أيضاً إلى تأسيس الإنسان على مجاهدة نفسه حتى ترتقي لأعلى المراتب الإنسانية، فموضوع مجاهدة النفس من أهم المواضيع التي سبّر أغوارها الفلاسفة والمتصوفة، ومن أهدافه تقصي أوجه الاتفاق والاختلاف بين الفلاسفة والصوفية في مجاهدة النفس. ولقد استعان الباحث بالمنهج الوصفي المقارن، وكذلك المنهج التحليلي، وذلك لتحليل أفكار الفلاسفة والصوفية، وتفسيرها للوصول إلى نتائج تسهم إلى تحقيق أهداف البحث، ورصد تجليات الأفكار الفلسفية والصوفية في ميدان مجاهدة النفس وترتيبها، وذلك لمعرفة مدى وضوح آراء الفلاسفة والصوفية، وإبراز أوجه الاتفاق والاختلاف في أفكار كل من الفلاسفة والصوفية.

ومن أهم الاستنتاجات التي تم رصدها في هذا البحث: إن مجاهدة النفس باب عظيم من أبواب الخير، فإن وفق العبد فيه فاز وريح ربحاً لا خسارة بعده أبداً، وإن عجز وغلب خسر خسراناً عظيماً، كما إن معرفة النفس أمر مهم بالنسبة للمسلم، الذي يسعى إلى تغيير أخلاقه السيئة بأخلاق حميدة، كما أن اتّصاف النفس بالآداب، والتحلي بالأخلاق الحميدة يأتي أولاً بالتكفّل والتعود، ويُسمى ذلك بمجاهدة النفس، وتهذيب النفس أمرٌ ممكنٌ بالاستقامة، وصدق النية، وهذا بدوره يوصل الإنسان إلى السعادة في الدارين الدنيا والآخرة.

ولهذا البحث أثر واضح في بيان إمكانية مجاهدة النفس وتهذيبها وتقويم سلوكها، وإن المجاهدة ليست مستحيلة فهي تقع في وسع العبد وفي مقدوره، إذ يستطيع العاقل أن يتغلب على طبعه وهواه، واستعمالها فيما يجب، وكفها عما لا يجب. **الكلمات المفتاحية:** مجاهدة النفس، السلوك، المجاهدة، التهذيب، الإفراط والتفريط.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين، إن جهاد المرء نفسه هو الجهاد الأكمل، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ سورة الشمس الآية (7-10) وإن من فضل الله على عباده أنه لم يترك شيئاً فيه صلاح خلقه في محياهم ومماتهم وجمال معاملاتهم ومعادهم مما ينالون به فضيلة أو يتنزّهون به عن رذيلة إلا هداهم إليه وحثهم عليه وبصرهم به في كتبه وسنن انبيائه وليس ما يقرب ويزلف له في الآخرة وأمر به إلا وهو فضيلة لفاعله وشرف، ولا شيء مما نهى عنه وزهد فيه في الدنيا إلا وهو رذيلة فيها فإن أسباب الدنيا موصولة بأسباب الآخرة، وفي اصلاح أحدهما إصلاح الأخرى وفي فساد أحدها فساد الأخرى، ولكي يعمل العبد على مجاهدتها وتهذيبها، لتبتعد عن الشر، ولا بد له إذا من معرفة الرذائل والآفات والعيوب؛ لأن تشخيص الداء يساعد في الدواء، وهذه الرذائل والآفات مما بليت به النفس، والعبد مطالب بمجاهدتها وتهذيبها فالنفس الإنسانية تجمع بين معاني صفات الربوبية، والصفات الإنسانية البهيمية، وأخلاق الشياطين، وعلى العبد أن يميز بين أفعاله، ويجاهد القبيح منها حتى يصل إلى فعل الجميل وقول الجميل ومجاهدة النفس تعني قيامها بالفضائل وتجنبها الرذائل والانقياد للعقل حتى تصل إلى الكمال والخروج من عالم المادة إلى عالم الروح في نقاء ورشد وقرب من الباري وبذلك تظهر ثمرة هذه التزكية على العبد امتثالاً لقوله ﷺ: ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (سورة فاطر الآية: 18) وما يؤكد هذا أيضاً قول رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم: «اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، زَكَّاهَا، أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيِّهَا وَمَوْلَاهَا» (أحمد بن حنبل، 1998، 484/1)، وقوله □ «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ دُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَوْلَاءِ الْأَرْبَعِ» (مسلم، 2003، 2088/4) فالرسول صلى الله عليه وسلم كان يدعو ربه عز وجل أن يزكي له نفسه حتى يكون قدوة لامته في أن يتضرعوا إلى الله تعالى بالدعاء ليزكي لهم أنفسهم، فالعبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصلحه ودفع مضاره، ولا معين له على مصلحه دينه ودنياه إلا الله عز وجل؛ فمن أعانته الله فهو المغان، ومن خذله الله فهو المخذول.

وعليه فإن في القرآن والسنة النبوية الكثير من النصوص التي تحث على جهاد النفس وتزكيتها، وكذلك المفكرون والحكماء على مر العصور قد تابعوا النفس وسبروا أغوارها لمجاهدتها وتهذيبها، وليس ثمة فيلسوف أو صوفي إلا وأدلى بدلوه فيه، أو تعرض له بشيء من الشرح والتحليل، وكل ذلك لتبیین سبيل العقل والاستقامة وإيقاظ الناس من غفلتهم ودعوتهم إلى تهذيب الانفس وتطهيرها.

وبالتالي فإن موضوع النفس من أخصّ الموضوعات فقد بحث فيها كلاً من الفلاسفة والمتصوفة المسلمين واحتلت الصدارة في بحوثهم ومؤلفاتهم متأثرين بحكماء اليونان تارة وبما ورد في القرآن الكريم تارة أخرى، فذهب الفلاسفة للبحث عنها من الناحية العقدية باعتبارها الملكة والمثابة والمعاقبة وبحثها أيضاً من ناحية صدور أفعالها عنها وعدم صدورها، وذهب المتصوفة إلى الغوص فيها وسبر أعماقها ودواخلها ومجاهدتها وتهذيبها لكي تسلم من شرورها وآفاتها، وقد ذهب الفلاسفة والمتصوفة إلى البحث في أغوار النفس وإثبات وجودها وحقيقتها وما تؤول إليه من ناحية التواب والعقاب وكيف يترفع الإنسان عن الأدران والآفات وتكتسب أفضل الاخلاق والعادات حيث أن مجاهدة النفس، وتطهيرها عند الفلاسفة لا تتأتى إلا عن طريق الجسم والاعمال البدنية بل وعن طريق العقل والأعمال الفكرية والرياضية كذلك، بينما اهتم الصوفية بموضوع النفس وكانت لهم تجارب روحية وعلمية تقوم على المجاهدة والرياضة التي تتقي النفس من الآفات وهذا جلي وواضح في تراثهم الذي خلفوه.

ويهتم هذا البحث إلى إخراج المعاني الفلسفية والصوفية لفهم النفس بمنظور اسلامي بحث يعالج آفات وأمرضها والرقي بها إلى الكمال، حتى تكون نقية طاهرة، خاصة في عصرنا هذا الذي طغت فيه الماديات على كل شيء بما في ذلك الأخلاق، حيث كثرت فيه الفتن، ومما لاشك فيه أننا في حاجة ماسة اليوم إلى أن نتساق عناصر الحياة الروحية والمادية معاً، بتطويع المادية للروحية ليعيش الإنسان حياته المثلى ويحقق ما ينشده من سعادة عندما يحقق التكامل والتوازن بين الجانب المادي ويمثله العلم والمعرفة، وما حققه في مجال تكنولوجيا المعلومات، والاتصالات والاكتشافات، وبين المجال الروحي الذي يمثله علم الفضيلة الخلقية، وما يحققه من سلامة وصحة للبدن والنفس معاً، وكذلك إلى حاجتنا الماسة إلى المعرفة بالنفس وفضائلها والقوى المحركة لها، وفي مقدمتها العقل والإرادة، فكل خير وفضيلة يقودنا إلى الكمال والسعادة، ولذلك فنحن في حاجة ماسة الى كشف النقاب عن عيوب النفس حتى نعالجها ونقومها إلى الطريق الصحيح وطبعاً يجب أن ننوه هنا إلى أن بحثاً كهذا لا يمكن حصر كل آراء الفلاسفة والمتصوفة فيه، ولكننا سنحصر البحث في رأي ابن حزم والغزالي فقط مع الأخذ برأي بعض الفلاسفة والمتصوفة ممن لهم رأي خاص يمكن الاستفادة منه في خدمة البحث.

إشكالية البحث: ولكن على الرغم من ذلك كله، نجد الإنسان مصاباً بالهموم، والأحزان من كل جانب، وأنه يُحس بالشقاء، والألم مع زيادة متطلبات الحياة، وذلك ما يجعلنا نتساءل لماذا لا يكون الإنسان سعيداً؟ بعيداً عن عناد النفس؟ حيث إن إنسان اليوم مع هذا التقدم والرقي الحضاري المنقطع

النظير نجده كثير الاتباع لهوى النفس، فتوالت عليه آفات نفسية، فهل ذلك سببه كثرة متطلبات الحياة؟ أم ابتعاد الإنسان عن الدين، والأخلاق علماً وعملاً؟ وكل ذلك يحتاج لمجاهدة النفس وتهذيبها وتطهيرها لتستقيم.

أسباب اختيار البحث:

1- اعتناء الدين الاسلامي بالنفس الانسانية، والحث على مجاهدتها وتهذيبها لأنها منبع الإيمان والإدراك.

2- اهتمام الفلاسفة والصوفية بمجاهدة النفس الإنسانية وتهذيبها، وذلك لتقويم السلوك الخُلقي فكان لابد من ذكر أهم آرائهم في مجاهدة النفس وتهذيبها وتطهيرها.

3- ان دعوة الأديان والشرائع تخاطب النفوس قبل أن تخاطب الأبدان، وتتجه إلى مجاهدة النفوس وتهذيبها أكثر مما تتجه إلى الأجسام وتقويمها.

4- اتجاه الصوفية وجهة نفسية، وكان لهم تحليلاتهم الدقيقة للنفس الانسانية، فكان لابد من النهل من هذا الثراء الفكري وخصوصا في موضوع مجاهدة النفس، وتهذيبها لتنصاح لطريق الحق.

5- حاجة الأمة الإسلامية في هذا العصر الذي طغت فيه الماديات وانتشرت فيه الأمراض والردائل في عصر العولمة والآلات، والانفتاح الثقافي والمعرفي، للكشف عن منهج أخلاقي يرتقي بالنفس الانسانية ليصل بها الى الفضائل والأخلاق الحميدة.

أهمية البحث: حاجة الإنسان في العصر الذي نعيشه إلى التعرف على كيفية مجاهدة النفس وتهذيبها، ويُعد ذلك من أمس الحاجات في يومنا هذا، وأكثر من ذي قبل، لأنه إذا صلحت النفس صلح الجسد، وإن من فضل الله تعالى على عباده أنه لم يدع شيئاً فيه صلاح خلقه في محياهم ومماتهم، وجمال معاملاتهم ومعادهم، مما ينالون به فضيلة أو ينتزهون به عن كل مرض ورتيلة، إلا نبههم عليه، وأن اسباب الدنيا موصولة بأسباب الآخرة، وفي إصلاح أحدهما إصلاح الأخرى وفي فسادها فسادها، وهنا وجب إخراج المعاني الفلسفية والصوفية لفهم النفس بالمنظور الذي يهذب النفس ويظهرها بالمجاهدة لتسير في طريق الحق.

أهداف البحث:

1- نظراً لأهمية فكر النفس في تاريخ الفكر الإسلامي، فقد دفعني ذلك إلى اختيار هذا الموضوع " مجاهدة النفس وأثرها في التهذيب بين المنهجين الفلسفي والصوفي " عنواناً لهذا البحث، إحساساً مني بأن موضوع مجاهدة النفس وأثرها في التهذيب يُعد من المواضيع التي شغلت اهتمام

الفلاسفة والمتصوفة، وظلت كذلك عند الكثير منهم موضع بحثٍ وتساؤلٍ، وقد كانت لآرائهم الخاصة والتميزة الأثر البالغ في الاهتمام بمثل هذا الموضوع؛ ولأجل ذلك رغبت بأن أسهم في خدمة هذا الجانب.

2- محاولة التركيز على جانب مجاهدة النفس وتهذيبها عند الفلاسفة والصوفية، وانتهاج نهجهم في إصلاح الأخلاق الذميمة للوصول إلى السعادة المنشودة.

3- كما أن الكتابة في هذا الجانب الفلسفي يأتي تأكيداً على أن مجاهدة وتهذيب النفس الانسانية من المواضيع الهامة التي يسعى الإنسان إلى بلوغها، وأنها من متطلبات حياته اليومية.
منهجية البحث:

إن طبيعة الموضوع تتطلب استقراء تراث الفلاسفة والصوفية، باستخدام المنهج التحليلي الوصفي والمقارن في عرض القضايا التي تتصل بموضوع البحث، المدعم بالدراسات المقارنة بالدرجة الأولى، والاعتماد على الشخصيات الفلسفية والصوفية، وإخراج المادة العلمية في مبحث تظهر فيه أفكار محددة جامعة للمنهج والبعد عن التهويل والتهوين، وتخريج الآيات والأحاديث.
هيكلية البحث:

يشتمل هذا البحث على مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة، تتضمن أهم النتائج، وآخره فهرس المصادر والمراجع.

المبحث الأول: مفاهيم المجاهدة وأهميتها، وأهمية المجاهدة عند الفلاسفة والصوفية.

1- تعريف المجاهدة.

2- أهمية المجاهدة عامة.

3- أهمية المجاهدة وتهذيب النفس عند الفلاسفة والصوفية.

4- مقارنة بين المنهجين في أهمية المجاهدة.

وفي المبحث الثاني: منهج الفلاسفة والصوفية في مجاهدة النفس وتهذيبها.

1- منهج الفلاسفة في مجاهدة وتهذيب النفس.

2- منهج الصوفية في مجاهدة وتهذيب النفس.

وفي المبحث الثالث: أركان المجاهدة عند الفلاسفة والصوفية.

1- أركان المجاهدة عند الفلاسفة.

2- لأركان المجاهدة عن الصوفية.

3- عقد بعض المقارنات بين النهجين من حيث سُبُل المجاهدة منها: الجوع والسهر والصمت والخلوة والعزلة.

ثم النتائج والاستنتاجات، وقائمة المصادر والمرجع.

المبحث الأول: مفاهيم المجاهدة وأهميتها عند الصوفية والفلاسفة

1- تعريف المجاهدة:

المجاهدة في اللغة من جهد جهداً: جد، وفي التنزيل العزيز قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ (سورة النور، الآية: 35)، وجهد العيش جهداً: ضاق واشتد فهو جهد وجاهد العدو مجاهدةً، جهاداً: قاتله، واجتهد: بذل ما في وسعه، والجهد: المشقة والنهائية والغاية والوسع والطاقة، ويقال: جهد وجاهد للمبالغة (المعجم الوسيط، 1985، 1/146)، والمجاهدة تعنى لغةً: بذل ما في الوسع والطاقة من أجل الوصول إلى الغاية، وهي تعنى أيضاً: الدفاع والمحاربة والمقاتلة.

المجاهدة اصطلاحاً: هي بذل المجهود في دفع الأغيار، أو قتل الأغيار، والأغيار هي: النفس، والشيطان (الغزالي، روضة الطالبين، 1996، 19) أو هي: معالجة النفس بتزكيتها لتفضي إلى الفلاح، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (سورة الشمس، الآية: 9-10).

2- أهمية المجاهدة عامة:

الإنسان في هذه الحياة الدنيا يعيش حالةً من الصراع مع أعداء ظاهرين، وآخرين لا يراهم، وربما كانوا أشد فتكاً به من أعدائه المشاهدين؛ ولذا فإنه لا بد أن يكون دائماً متيقظاً حذراً، فمجاهدة النفس أمر مهم بالنسبة للمسلم، حيث لا يخلو المرء من عيوب وآفات وذنائب، تبعده عن ربه، وتجره إلى الموبقات، وإلى ما نهى الله تعالى عنه، ولقد طلب الحق تبارك وتعالى من العبد أن ياتم بأمر الله، وأن ينتهي عما نهى الله عنه، فيثبت على الطاعة، ويبتعد عن المعاصي اتباعاً لقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (سورة الأعراف، الآية: 157).

ولا يستطيع العبد القيام بذلك إلا بمجاهدته لآفاته وعيوبه وذنائبه، وحمل نفسه على الطاعة طوعاً أو كرهاً، حتى تنقاد له، ويسلم من الشرور والآثام، وينتظم في سلك المتقين الطائعين، وتكمن حقيقة المجاهدة في أن يعلم الإنسان أعداءه فيتسلح لمجابهتهم ومحاربتهم، وردهم عن عدوانهم وغيهم، ففي ذلك فلاحه ونجاحه في الدنيا والآخرة، وإذا كان أعدى أعداء الإنسان نفسه التي بين جنبيه، فهي أول الأعداء فتكاً به، فلا بد للمسلم أن يجاهد نفسه حتى تنقاد له وتدع لأوامر الشرع (ابو بكر الجزائري، منهاج المسلم، 1986، 97)، فإذا أدرك المسلم هذا أعلن الحرب على نفسه، وشهر السلاح ضدها، وحارب

رعونتها وشهواتها، وأخذها بعكس قصدتها: فإذا ركنت إلى راحة أتعبها، وإذا رغبت في شهوه حرمها، وإذا قصرت في طاعة أو خير عاقبها ولامها، ثم يلزمها بفعل ما قصرت فيه ويقضاء ما فوتته وتركته، ويأخذها بالتأديب والمجاهدة حتى تطمئن وتطهر تماماً، هذا الأمر بمجاهدة النفس دعانا إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۗ هُوَ اجْتَبَكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۗ﴾ (سورة الحج، الآية: 78)، ولقد أثنى الله على المجاهدين لأنفسهم خيراً فقال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ۗ﴾ (سورة العنكبوت، الآية: 69)، ولقد جعل الله عز وجل مخالفة هوى النفس موصلة إلى الجنة، فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۗ﴾ (سورة النازعات، الآية: 40-41)، ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة فلقد قال: «الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي اللَّهِ» (الحاكم، المستدرک، 10/1)، وعلى العبد الذي يريد تطهير نفسه بمجاهدتها وردها إلى الصواب: أن يتفكر في عيوب نفسه من هواجس وخواطر ترد على قلب العبد؛ فتدعوه إلى شهوة، أو ركوب هوى مع إلحاح في القلب، لتجذب العبد إلى ما تهدف إليه، فإذا طالبت صاحبها بشيء ألحت عليه فلا تزال تعاوده ولو بعد حين، حتى تحصل على مرادها ومقصدها، ومن هنا يأتي دور المجاهدة؛ فهي تخلص العبد من الخواطر والهواجس التي بداخله (عبد المقصود عبد الغني، النظرية الخلقية في الاسلام، 1991، 130).

وبعد؛ فإن مجاهدة النفس أمر مهم اتفق عليه جميع العقلاء؛ لأنه مأمور به في الإسلام ومحمود عقلاً وشرعاً، وفلاسفة وصوفية يتفقون في أهمية مجاهدة النفس وتطهيرها، وإن اختلفت أساليبهم ومناهجهم في ذلك، إلا أنهم جميعاً يرون أن مجاهدة النفس أمر لا بد منه، غير أن الصوفية اهتموا بمجاهدة النفس أكثر من غيرهم؛ لأنهم يعتبرون النفس مصدر الآفات والصفات المذمومة من العبد، ولا تأتي بخير أبداً بل كلها شر، لذلك بالغوا في مجاهدتها.

3- أهمية مجاهدة النفس عند الفلاسفة والصوفية:

أولاً: أهمية المجاهدة عند الفلاسفة:

تنشأ مجاهدة النفس عند فلاسفة الإسلام من خلال نظرتهم في النفس، ومن علاقة النفس بالبدن وما ينتج عن هذه العلاقة من فعل وانفعال، فالبدن بالقوى البدنية يقتضى أموراً، والنفس بالقوة العقلية تقتضي أموراً مضادة لكثير منها، وهنا يحصل تصادم ومعارضة من جهة العقل على تلك الأفعال، فتحمل النفس على البدن فتقهره، وتارة يسلم البدن فيمضي فعله، فإذا أسلمت النفس للبدن حدثت هيئة

إذعاناً للبدن، حتى يعسر عليها بعد ذلك قهره ومغالبته ويشد أمر البدن على النفس وهنا تتغلب شهوات البدن على النفس (ابن سينا، رسالة في الأخلاق، د-ت، 10).

أما إذا حدث العكس بأن تكرر قمع النفس للبدن، حدث في النفس هيئة استعلانية يسهل عليها مفارقتها للبدن فيما يميل، فتتغلب النفس على البدن وجوارحه (ابن سينا، رسالة في الاخلاق، د-ت، 10)، فعلاقة النفس بالجسد على هذا النحو علاقة تأثير وتأثر، مما يترتب عليه فعلاً وانفعلاً وينتج عن هذا التفاعل ثلاث حالات: استعلاء النفس على البدن، وانقياده لها فتسعد، واستعلاء الجسد على النفس فتتقاد له فتشقى وتدعن، وإما مؤازرة بينهما، فيشتاق لها الجسد وتحرر من سيطرته، وهذه الحالة هي التي تكسب بها ملكة التوسط، وعلى هذا فالنفس تتحرك إلى جهتين:

- العلو.

- السفلى.

فالأول: نحو العقل، **والثانية:** نحو الميولي (الجسد) فإذا تحركت نحو العقل استتارت واستقادت منه، وإذا تحركت نحو الجسد أفادته، فبالجهة الأولى تستفيد وبالأخرى تفيد (مسكويه، الفوز الأصغر، 1325، 51)، فكلما قربت النفس من الجانب الأعلى (العقل) توجهت إلى بارئها ومبدعها الواحد فيه وجدت الوحدة، واستتارت بنور العقل، واسترشدت وقويت على فعل الخير، ونالت السعادة، أما إذا أنزلت إلى الجانب السفلي (الجسد) تأثرت به، وركنت إلى شهواته المادية، وقادها ذلك إلى الهلاك والشقاء (مسكويه، الفوز الأصغر، 1325، 54)، إذاً النفس لها حركتان: **الأولى:** العقل: وفي ذلك الرضا والرشد. **والثانية:** الجسد: وفي ذلك الركون إلى الشهوات والملذات، فتبعد عن السعادة.

ويؤكد مسكويه على أن: النفس تقبل جميع الصور كلها على اختلافها بالقوة المحسوسة والقوة المعقولة، ثم لا تزال تقبل الصورة تلو الأخرى بلا نهاية، أي لا تنتهي إلى حال تضعف عن قبول ما يرد عليه تستجده من الصور (مسكويه، الفوز الأصغر، 1325، 51)، فما يرد على النفس من صور وتصور يجعلها تضعف تجاه هذه الأشياء، فلا بد أن تستيقظ من سباتها وترجع إلى رشدها، ويكون ذلك بالمجاهدة ومما يدل على أن أفعال الجسم تعوق أفعال النفس وتخالفها أن الإنسان إذا همّ بتصوير أمر عقلي ترفد، واجتهد في تعطيل حواسه غاية الاجتهاد، وكلما كان أقدر على التخلي وتعطيل الحواس كان أقدر على تصور ذلك المعقول.

فهو كلما عطل أفعال الجسد، كان فعل النفس أقوى، ذلك لأن النفس إذا رجعت إلى ذاتها وخلت عن البدن ومحسوساته حصلت المعقولات الخاصة بها ورأته بالعين اللائقة التي ليست جسمية ولا سبيل لها إلى تحصيل العلوم الحقيقية إلا بهذا الوجه يعني بطرح البدن وترك استعماله (مسكويه، رسالة في النفس والعقل، 2002، 76)، والمجاهدة تعني ترك رغبات البدن ولذاته، إلا فيما أباحه الشرع دون إسراف أو تقريط، ومن هنا تأتي أهمية مجاهدة النفس عند الفلاسفة لردها إلى العقل والصواب، والاستقامة على طريق الحق والبعد عن الشهوات الهائجة والتي طلب منه مجاهدتها، فالترقي بالنفس الإنسانية، وانتزاعها من ظلمة الأجساد يخلصها من ظلمة الأجساد والأوزار.

ثانياً: أهمية المجاهدة عند الصوفية:

ترجع أهمية مجاهدة النفس عند الصوفية من خلال نظرهم للنفس الإنسانية؛ حيث إنها عندهم مصدر الآفات والرزائل، وأن العبد مأمور بمجاهدتها حتى يتخلص من آفات نفسه وعيوبها، ويستقيم على طاعة الله عز وجل، والمجاهدة ركن قوى في سلوكهم، ولذلك يقولون: " من لم يكن في بدايته صاحب مجاهدة لم يجد من هذه الطريقة شمعة" (مسكويه، رسالة في النفس والعقل، 2002، 79).

والمجاهدة عند الصوفية هي وسيلة الهداية القلبية إلى الله تعالى ورضوانه، والهداية في مقدمة التقوى قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ (سورة محمد، الآية: 17)، فالمجاهدة توصل إلى الهداية، والهداية توصل إلى التقوى، وكل ذلك لا يتم إلا بتوفيق الله ومعاونته وعطائه (سعيد حو، تربيتنا الروحية، 1999، 119)، فما على العبد إلا أنه يسلك طريق المجاهدة، والله تعالى هو الذي ييسره له، ويُعينه، فيصل إلى الهداية والتقوى ثم الاستقامة على ذلك، ولأهمية المجاهدة عند الصوفية جعلوها ضمن آدابهم يقول السلمي: آدابهم المداومة على المجاهدة في كل الأحوال (القشيري، الرسالة القشيرية، 1966، 218)، فهم دائماً في جهاد مع النفس وشهواتها لتتنقص منهم أخلاق النفس والطبع (السلمي، جوامع آداب الصوفية، د-ت، 9)، العبد إذا جاهد نفسه وانتصر عليها فإنه يستطيع أن يجاهد أعداءه فينتصر عليهم كما على نفسه، والصوفية لا يجاهدون أنفسهم لمحو الصفات المذمومة فقط، بل يجاهدون أنفسهم أجل المواظبة على الأعمال المفروضة والمندوبة، فهم إذن في مجاهدة على الدوام، مجاهدة تخلي، ومجاهدة استقامة على التخلي (السلمي، جوامع آداب الصوفية، د-ت، 10)، ومواظبة على الفرائض والمندوبات، بل من الصوفية من يعتبر القتال في سبيل الله، إنما هو قتال النفس ومجاهدتها.

قال القشيري في قوله تعالى: ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَمُتْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (سورة النساء، الآية: 74) "من لم يقتل نفسه لا يصح جهاده لنفسه، فعليه بإخراج خطر الروح من القلب، ثم تستسلم النفس للقتل، فقتل النفس جهادها، وترك مجاهدتها بلاؤها" (القشيري، لطائف الاشارات، 1971، 346/1)، وهنا يرى القشيري: أن الجهاد هو جهاد النفس، وأن القتل في الآية معناه قتل النفس، فقتلها جهادها، لكن ظاهر الآية لا يعنى هذا يقول القرطبي: فليقاتل في سبيل الله الخطاب للمؤمنين أي فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون" أي يبيعون أي يبذلون أنفسهم وأموالهم لله عز وجل بالآخرة " أي بثواب الآخرة (القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 1996، 194/2) وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « تَضَمَّنَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَإِيمَانًا بِي وَتَضَدِيقًا بِرْسُلِي فَهُوَ عَلَى ضَامِنٍ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكِنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ » (النسائي، السنن الكبرى، 1991، 119/8).

ويقسم القشيري الجهاد إلى قسمين: الجهاد الظاهر: "وهو مع الكفار، والجهاد الباطن: وهو مع النفس والشيطان، والثاني عندهم الأهم، وهو أن يملك العبد نفسه التي كانت في يد العدو- الهوى والشيطان- فبعد ما كانت ظواهره مقرأ للأعمال الذميمة وباطنه مستقرًا للأحوال الدنية، يصير محل الهوى ومسكن الرضا، ومقر الشهوات والمُنَى مسلماً لما يرد عليه من مطالبات المولى عز وجل، وتصير النفس مستتلة من أسر الشهوات، فمخالفة النفس راس العبادات" (امام حنفي سيد، الآراء الكلامية والصوفية للقشيري، 1997، 442)، ومما سبق تتلخص أهمية مجاهدة النفس عند كل من الفلاسفة والصوفية على النحو التالي:

4- مقارنة بين المنهجين في أهمية المجاهدة:

أولاً: الفلاسفة:

تكم أهمية المجاهدة عند الفلاسفة فيما يلي:

- 1- مدى علاقة النفس بالبدن وما يتبع ذلك من فعل وانفعال.
- 2- بالنظر في متطلبات البدن ومتطلبات العقل، وأن كلا منهما يغاير الآخر، والعبد مطالب بتعديل مطالب كل منهما على حسب مقتضيات الشرع والعقل.
- 3- من خلال ما يتطلع إليه البدن من شهوات وما يصدر من النفس لقمع هذه الشهوات الهائجة من البدن، ويُعمل العقل فكره فيها فيقبل بعضها ويرفض الآخر.

ثانياً: الصوفية:

تكمن أهمية مجاهدة النفس عند الصوفية فيما يلي :-

- 1- من خلال نظرتهم للنفس، وأنها مصدر الآفات والرزائل، وأن العبد مأمور بمجاهدتها.
 - 2- أهمية المجاهدة لمحو الصفات السيئة من العبد، وتخلقه بالأخلاق الحسنة.
 - 3- أن المجاهدة بداية الهداية فإذا ما انتصر العبد على نفسه، استطاع أن ينتصر على غيره.
- ومما سبق نرى انه لا تعارض بين المنهجين في مدى أهمية المجاهدة عند كل من الفلاسفة والصوفية محل البحث وإن اختلفت المناهج، وبالنظر في منهجها محل البحث نرى أنهما يكمل بعضهما بعضاً، فإن ما يصدر من العبد من مقتضيات البدن من شهوات وعيوب وسيئات يقتضى أن العقل يتصادم مع كثير منها، وفي هذه الحالة تجب المجاهدة، كما اتفق الفلاسفة والصوفية على أن مجاهدة النفس وتهذيبها وكبح جماحها هو السلم الذي يصل به الانسان إلى مدارك الكمال والرقى إلى المقامات السامية، اهتمام الفلاسفة والصوفية بمجاهدة النفس الإنسانية وتهذيبها، وذلك لتقويم السلوك الخُلقي فكان لا بد من ذكر أهم آرائهم في مجاهدة النفس وتهذيبها.

المبحث الثاني: منهج الفلاسفة والصوفية في مجاهدة النفس وتهذيبها: أولاً: منهج الفلاسفة في مجاهدة النفس:

إن مجاهدة النفس ليست من الأمور المستحيلة فهي تقع في وسع العبد وفي مقدوره، إذ يستطيع العاقل من الناس أن يتغلب على طبعه وهواه، وشهوات بدنه، واستعمالها فيما يجب، وكفها عما لا يجب، ولذلك كان منهج الفلاسفة واضحاً وصريحاً في الدعوة إلى مجاهدة النفس، ومحاربة شهواتها، وردع رعونتها، وكفها عن آفاتها، وكان الماوردي ينصح الملوك - ومن على شاكرتهم - ويوجه لهم الكلام باعتبارهم القدوة والحكام الذين يتولون أمور البلاد والعباد فيكونون قدوة لغيرهم: أن يكونوا أشد الناس ترفعاً عن الدنيا، وتنزهاً عن الخساسة، وتعالياً عما يشين الأعراض، ويُفسد المروءة، ويؤذن بخراب مملكته (الماوردي نصيحة الملوك، 1988، 69)، وفي هذا النصح يرشدهم إلى الترفع والتخلي عن رذائل النفس وآفاتها التي تؤذن بخراب المملكة.

ويسترسل الماوردي في نصيحته للملوك فيقول: "وينبغي أن يكون الملك أحسن رعيته أدباً، وأكثرهم قمعاً لشهواته الضارة، فإن عجز عن سياسة نفسه وتقويم أخلاقه كان عن تقويم غيره أعجز" (الماوردي نصيحة الملوك، 1988، 70)، وليس الكلام للملوك فحسب، ولكنه للرعية أيضاً لكن بدأ الحاكم أو الملك بنفسه ليكون أدهى للقبول فهو ليس فوق القانون، وإنما ينبغي أن يكون الملك قدوة لغيره وعليه أن يبدأ بنفسه؛ فإن من يعجز عن مجاهدة نفسه فهو عن مجاهدة غيره أعجز.

ثم يحث الماوردي الملك وغيره بأن يتحلى بالفضائل: بأن يختار من السنن أشرفها وأعلاها، ويرتاض من الأفعال أرفعها وأسناها (الماوردي نصيحة الملوك، 1988، 71)، ثم يرشده للطريقة التي يستطيع بها العبد أن يصل إلى مجاهدة نفسه وتركيتها فيقول: "وإن يرتكب كثيراً من المؤلم المكروه، ويتجنب كثيراً من الملهو المحبوب؛ لينال السيرة التي تشاكل رتبته، وتضاهي منزلته" (الماوردي، نصيحة الملوك، 1988، 72)، وعليه أيضاً أن يقابل بمحاسنه مساوئه، وبمحامده مذامه، حتى يعود نفسه الأمور الفاضلة، ويروضها الرياضة المحمودة (الماوردي نصيحة الملوك، 1988، 73).

والماوردي بهذه الوصايا والنصائح التي يوجهها للأمة الإسلامية في هذه الشخصية التي عبر عنها بالملك ويراد بها كافة الناس الذين يحبون مكارم الأخلاق، والذين ينزهون عن كل هذه النصائح التي توصل إلى الفضائل، فالفضائل عنده لا تترك إلا بمجاهدة الطبع، والعمل على البدن والنفس في قمع الشهوات الموبقة، والأهواء الضالة المخالفة لأعراض والأديان، وإن أكثر ما يشق على الإنسان تركه وفراقه من الأفعال الملمومة: حاجات وشهوات منشؤها سوء العادات، مستولد من أمزاج النفس، وترك الفن دون ضبط، وإهمال الطبع (الماوردي نصيحة الملوك، 1988، 73).

وفي هذا النص السابق لخص لنا الماوردي: أن الوصول إلى الفضائل يكون بما يلي:

- 1- مجاهدة طباع النفس والتغلب عليها.
 - 2- استعلاء البدن والنفس على الشهوات والأهواء.
 - 3- أصعب الأشياء الموبقة على الإنسان هو ما نشأ وتعود عليه من أمزجة النفس وتركها دون ضبط فيعسر عليه بعد ذلك ردها عما تعودت عليه، ولكن هل هذا ممكن ويقدر عليه العبد؟.
- يُجيب الماوردي على هذا السؤال بقوله: " ومن أراد أن ينتقل من مذمومها إلى محمودها، ومن مستقبحها إلى مستحسنها، كان منه ممكناً، وعليه قادراً، فمن تعود على الخير سهل عليه إتيانه، لكن من تعود الشر صعب عليه الانتزاع منه (الماوردي نصيحة الملوك، 1988، 74)، والمجاهدة كما يرى الماوردي في وسع العبد، وفي مقدوره، وفي إمكانه ويستطيع الإنسان أن يتغلب على أخلاقه المذمومة ويبدلها بأخلاق محموده، ويبدل القبيح بالحسن. لكن من لم يتعود الخير يكون ثقيلاً عليه في أول الأمر، ثم بعد ذلك يتعود عليه شيئاً فشيئاً، وكذلك من تعود الشر يصعب عليه تركه حتى يصير طبعاً له، لكن إذا همّه على الترك أعانه الله تعالى على ذلك، وسهل عليه بعد ذلك فراقه.

ثانياً: منهج الصوفية في مجاهدة النفس يتلخص فيما يلي:

- 1- جهاد النفس من أجل المواظبة على الأعمال المفروضة والمندوبة.

2- المجاهدة من أجل محو الصفات المذمومة من النفس، والنقص الذي في أخلاق النفس والطبع (السلمي، جوامع آداب الصوفية، 1999، 64).

3- المجاهدة من أجل أن يملك العبد نفسه من الهوى والشيطان.

4- وعن طريق المجاهدة يصل العبد إلى تزكية نفسه وتطهيرها، والوصول بها إلى درجات النقاء والصفاء واتصافها بكل المعاني الحميدة (امام حقي سيده، الآراء الكلامية والصوفية، للقشيري، 1997، 443).

5- أن يُلجم العبد نفسه بلجام التقوى والورع؛ ليحصل له الامتثال والانتهاز بمنعها عن الشهوات وحمل أثقال العبادات عليها (الغزالي، روضة الطالبين، 1996، 88).

6- هجران إخوان السوء ومفارقة المكان الذي مارس فيه المعاصي، والرجوع بالنفس إلى طريق أهل الصلاح (السلمي، منهاج العارفين، 1993، 3).

المبحث الثالث: أركان المجاهدة عند الفلاسفة والصوفية في مجاهدة النفس:

ما أركان المجاهدة التي يسلكها العبد ليحقق ثمرة جهاده لتهذيب النفس؟.

أولاً: أركان المجاهدة عند الفلاسفة:

بعد أن عرفنا معنى المجاهدة وأهميتها ومنهج الفلاسفة في مجاهدة النفس، لا بد أن نعرف أركان المجاهدة وأصولها التي يسلكها العبد ليحقق الثمرة المرجوة منها، وأركان المجاهدة يسميها مسكويه بـ "الأداب"، فهو يرى أن مجاهدة النفس تعنى أخذها بالآداب، وهي عنده: الجوع والصمت، السهر، ولا بد أن يستعملها الآباء في تنشئة أولادهم، ثم يؤكد على أهمية هذه الأركان فيقول: "وإن كانت هذه الآداب نافعة للصبيان في بداية نشأتهم فهي للكبار من الناس أيضاً نافعة لأنها تعودهم محبة الفضائل، فلا يتقل عليهم تجنب الرذائل، ويسهل عليهم ما ترسمه الحكمة، وتحده الشريعة والسنة، ويعتادون ضبط النفس عما تدعوهم إليه من اللذات القبيحة، والفكر الكثير فيها، ويرتقون إلى معالي الأمور (مسكويه، تهذيب الأخلاق، 1985، 65)، إذن فأركان المجاهدة لازمة للصغار، وناقصة للكبار أيضاً، فهي تساعد النفس على التخلص من آفاتهما، وتستقيم على طاعة ربها وهذه الأركان هي:

1- الجوع.

2- الصمت.

3- السهر.

4- وهناك ركن آخر لم يذكره الماوردي وهو الخلوة والعزلة. وسنتحدث عن هذه الأركان تفصيلاً فيما

بعد.

ثانيًا: أركان المجاهدة عند الصوفية:

المجاهدة اهتم بها الصوفية اهتمامًا كبيرًا، وجعلوها أساس طريقتهم في الوصول إلى رضا الله تعالى، وأركان المجاهدة عند الصوفية، كما يقول الغزالي: " أربعة هي: القوت من الطعام، والغمض من المنام، والحاجة من الكلام، وحمل الأذى من جميع الأنام. فيتولد من قلة الطعام: الجوع وموت الشهوات، ومن قلة المنام السهر وصفو الإرادات، ومن قلة الكلام: الصمت والسلامة من آفات اللسان، ومن احتمال الأذى اللحم وبلوغ الغايات (الغزالي، الأحياء، 2007، 74/3).

وهنا ذكر الغزالي أربعة أركان للمجاهدة هي:

1- الجوع.

2- الصمت.

3- السهر.

4- اللحم.

ولم يذكر الغزالي فيما سبق الخلوة والعزلة لكنه نوه عنها في مواضع أخرى من مؤلفاته، ولأهمية هذه الأركان في طريق المجاهدة أكد عليها - أيضا - أبو طالب المكي في كتابه القوت وهي: " الجوع، السهر، الصمت، الخلوة والعزلة"، وهذه الأركان لها أثرها الفعال في النفس والقلب معًا؛ لأنها تكبح جماح النفس وتضيق عليها مسالك الشهوة، وتقيدها عن الانطلاق مع الأهواء، وبذلك يضعف جانب الشر فيها؛ فتقبل على الطاعة والبر فتحسن معاملتها وتكون أهلاً لرضا الله تعالى فلكل من هذه الأركان دور في تطهير القلب من خواطر الهوى وإعداده؛ ليكون أهلاً لتلقى نفحات الجود الإلهي (عبد الحميد مذكور، ابو طالب المكي ومنهجه الصوفي، 1972، 90) ومما سبق تبين لنا اتفاق الفلاسفة والصوفية على أركان المجاهدة، وأن أشهرها وأقواها ما سبقت الإشارة إليه من:

1- الجوع

2- السهر.

3- الصمت.

4- الخلوة والعزلة.

وهذه الأركان إذا داوم العبد على ممارستها والسير على طريقها أمكنه التغلب على نفسه وانقيادها له وضعف فيه جانب الشر وقوى جانب الخير إذ حاله في نهار صائم وليله ساهر قائم، وعن الشر وفضول الكلام صامت وللخلق معتزل مفارق ومع الله تعالى ذاكرًا شاكراً متبعًا أمره مجتنبًا عن نهيه،

وهذه الأركان شديدة على النفس في بداية الطريق، لأنها تحرمه من لذة الحياة وشهواتها، وتقبلها على الطاعة جبراً، وتقهرها على مخالفة طباع النفس.
ثالثاً: عقد بعض المقارنات بين المنهجين من حيث أركان المجاهدة منها: الجوع والسهر والصمت والخلوة والعزلة.

1- الجوع:

تعريفه لغة:

من جاع جوعاً وجوعاً ومجاعةً، أي خلت معدته من الطعام، وأجاعه: منعه عن الطعام والشراب، وتجوع: أي تعمد الجوع، والجوع: خلو المعدة من الطعام (المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، 153/1).
الجوع: هو الركن الأول من أركان المجاهدة، وأهم أركانها؛ لأن به يستطيع المرء أن يتغلب على أكثر شهواته وحواسه، ولذلك كان للجوع أثره الواضح في مجاهدة النفس وملذاتها، ولذلك اتجه المصلحون والحكماء من الفلاسفة والصوفية إلى تعميق هذا المفهوم، وجعلوا الجوع أحد أركان المجاهدة عندهم، وهم يقصدون به خلو المعدة من الطعام لا عن حاجة وعوز، ولكن تعمداً للجوع حتى تنكسر شهوات العبد، وتصح مجاهدته.

أولاً: الجوع عند الفلاسفة:

لم يتكلم الفلاسفة كثيراً عن الجوع وأثره وذلك لأنه منهج عقلي قائم على النظر والتأمل بخلاف الصوفية، فإنهم كثيراً ما خاضوا هذه التجارب والمجاهدات وتكلموا عنها إلا أننا نجد هناك بعض الفلاسفة تكلم عن الجوع وأثره، ويرى مسكويه أن الطعام بالنسبة للعبد كالدواء يأخذ منه على قدر الحاجة، فيأخذ من الطعام ما يدفع ألم الجوع ويمنع المرض، وهنا يقول صلى الله عليه وسلم: «مَا مَلَأَ آدَمِيَّ وَعَاءَ شَرًّا مِنْ بَطْنٍ حَسْبُ الْآدَمِيِّ لَقِيمَاتٌ يُقَمَّنُ صُلْبُهُ فَإِنْ غَلَبَتْ الْآدَمِيَّ نَفْسُهُ فَتُلَّتْ لِلطَّعَامِ وَتُلَّتْ لِلشَّرَابِ وَتُلَّتْ لِلنَّفْسِ» (ابن ماجة، السنن، 1986، 4/448)

وفي هذا دليل على أن الجوع له أثر كبير بخلاف الشبع، ولذلك أوصى مسكويه بالإقلال من الطعام وعدم الإكثار منه، بل جعل أنه لا بد على العبد ألا يعدد ألوان الطعام بل يقتصر على ما يقيم صلبه، وإن كان لا بد فاعلاً فتلت لطعامه وتلت لشرابه وتلت لنفسه (مسكويه، تهذيب الأخلاق، 1985، 62)، وإذا نظرنا إلى تيار آخر من الفلاسفة كإخوان الصفاء نجد أنهم يهتمون بالجوع، فهو عندهم: "أقرب للخشوع والطاعة؛ لأنه يكسر طغيان النفس وعنقها الذي يسببه الشبع (إخوان الصفاء، الرسائل، 1982، 1/331).

- وللجوع فوائد صحية وإيمانية من أهمها:

حفظ صحة الجسم، وجودة الحفظ والفهم، وجلاء القلب وقلة النوم، وصدق الرؤيا وخفة النفس، وبالجموع يكون المرء أحد بصرًا، وألطف فكرًا، وأقبل للعلم، وأسرع الحركة، وأكرم خلقًا (إخوان الصفاء، الرسائل، 1982، 332/1)، وهذه الفوائد السابقة لها قيمتها في سلوك العبد وعبادته وأساسها الجوع، وهو شيء يسير، ويستطيع العبد أن يفعله إذا تغلب على شهوة بطنه وعينه.

وقالوا: القناعة مع الجوع تجعل الإنسان مزرعة للفكر، وينبوعا للحكمة، ومصباحا للقلب فبالجوع تقتل الشهوات، وتنهضم الوسوس، ويعصم الحساب يوم القيامة (إخوان الصفاء، الرسائل، 1982، 333/1)، ويمكن أن نجمل فوائد الجوع عند إخوان الصفا فيما يلي:

- 1- الجوع يكسر طغيان النفس وعنفها ويساعد على الخشوع.
- 2- في الجوع حفظ صحة الجسم.
- 3- الجوع يساعد على جودة الفهم والحفظ.
- 4- الاقتصار على المهم فقط أي ما يقيم صلبه دون النظر والتلذذ بالأطعمة المختلفة (إخوان الصفاء، الرسائل، 1982، 333/1).

وقد حدد مسكويه ما لا بد منه من الطعام فقال: "بأن يقتصر على الخبز الخالي من الأدم، ومن الأفضل له أن يمنع أكل اللحم في أكثر أوقاته، وأن يمنع من الفاكهة، والحلو إن أمكن؛ لأنها تستحيل في البدن، فتكثر انحلاله وتعوده الشره ومحبة الاستكثار من المأكّل (مسكويه، تهذيب الأخلاق، 1985، 62)، وهنا نرى مسكويه يدعو إلى النقش وخشونة العيش وترك الشبع وذلك من خلال:

- 1- الاقتصار على الخشن من العيش.
- 2- أن يمتنع عن أكل اللحم في أكثر أوقاته.
- 3- أن يمتنع من أكل الفاكهة والحلو.
- 4- الاقتصار على المهم فقط دون النظر والتلذذ بالأطعمة المختلفة.

وهذا نصح وإرشاد للعبد المبتدئ، بأكل المهم والمقوت من الطعام فقط، دون الركون إلى الملذات التي تفتت الأعضاء ويجرّها إلى الكسل والنوم، فيهمل العبد بسببها قيام الليل والصلاة والذكر فيقسو قلبه وتضعف همته، وما قاله مسكويه من الإقلال من الطعام والاقتصار على المهم فقط يتفق مع ما دعا إليه النبي صلى الله عليه وسلم وفي هذا الشأن بالأخصّ إذ يقول: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن، بحسب ابن آدم لقيمات يُقمن ضلّبه، فإن كان لا محالة: فتُلث لطيّامه، وتُلث لشرابه، وتُلث لنفسه» (ابن ماجه، السنن، 1986، 448/4).

- 5- في الجوع جلاء القلب.

6- الجوع يقلل من النوم، وبه تصدق الرؤيا.

7- الجوع يساعد على لطف الفكر وقبول العلم.

8- في الجوع سرعة الحركة إلى الخير.

9- بالجوع يكون المرء أكرم خلقاً.

10- الجوع يقتل الشهوات ويهدم الوسوس.

ثانياً: الجوع عند الصوفية:

يهتم الصوفية بالجوع اهتماماً كبيراً ويجعلونه أحد أركان المجاهدة التي لا بد للعبد ان يسلكها، حتى يمكنه السيطرة على سائر شهواته وجوارحه؛ ليصح يقينه وتستقيم نفسه على الطاعة، ونظراً لأن هؤلاء الصوفية مارسوا الجوع وواظبوا عليه فقد انطلق لسانهم بالدعوة إليه والحث عليه، وكان من ضمن آدابهم: " مكابدة الجوع والذلة وقلة الأكل أو الشرب، إلا على قدر الحاجة، وعدم الشبع من الحلال؛ لئلا يتخطى به إلى الشبهة والحرام (السلمي، جوامع آداب الصوفية، 1999، 44).

ويقول القشيري: "إن الصوفية وجدوا في الجوع ينابيع الحكمة وتدرجوا في رياضتهم ومجاهدتهم باعتماد الجوع وكثرت الحكايات عنهم في ذلك (القشيري، الرسالة القشيرية، 1966، 141/2)، إذن الجوع من أهم أركان المجاهدة عند الصوفية ولم تخل مؤلفاتهم عن الحديث عنه، ويرى أبو طالب المكي: " أن الجوع أثره في السالك فهو يعين المرید على ترويض نفسه وممارسة عاداتها ويقهرها على الطاعة، ويخرج حلاوة الدنيا من القلب، ويقوى إرادة الآخرة. وهو عكس الشبع الذي يؤدي إلى قوة صفات النفس وانتشار حظوظها وفي ذلك ضعف الإيمان وخمود أنواره (عبد الحميد منكور، ابو طالب المكي، 1972، 240/2).

والآفات السابقة سببها الشبع، والنجاة منها يكون بالجوع، كما جاء في قول رسولنا صلى الله عليه وسلم: «مَا أَشْبَعَ رَسُولَ اللَّهِ أَهْلُهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ تَبَاعًا مِنْ حُبْزِ الْبُرِّ حَتَّى فَارَقَ الدُّنْيَا» (مسلم، الصحيح، 1998، 199/7) ولقد دعانا النبي صلى الله عليه وسلم ورغبنا في الجوع حتى ترق قلوبنا فقال: « إِنَّ أَطْوَلَ النَّاسِ جُوعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَشْبَعُهُمْ فِي الدُّنْيَا » (الطبراني، المعجم الكبير، 1983، 58/14)، وقد مارس الصوفية الجوع عملياً ونطق لسان حالهم بذلك، ورد أن سهل بن عبد الله التستري: " كان لا يأكل الطعام إلا كل خمسة عشر يوماً، فإذا دخل رمضان كان لا يأكل حتى يرى الهلال - أي هلال رمضان - وكان يفطر كل ليلة على الماء (القشيري، الرسالة القشيرية، 1966، 140).

ويُعد هذا من سهل بن عبد الله مبالغة في الجوع وتعطياً لحركة الحياة التي تتطلب العمل والجهاد والسعي الذي أمر به الله تعالى، ولعله كان يسعى ويعمل، لكنه يفعل ذلك بشق النفس كسرّاً لها، ومحاربة

شهواتها، وقال يحيى بن معاذ: "الجوع للمريدين رياضة، وللتائبين تجربة، وللزهاد سياسة والعارفين مكرمة (القشيري، الرسالة القشيرية، 1966، 140)، وقال أبو سليمان الداراني: "مفتاح الدنيا الشبع، ومفتاح الآخرة الجوع"، كما ينبهنا الغزالي إلى أهمية الجوع بالنسبة للعبد فيقول: "طالب العيادة أن يحفظ بطنه ويصلحها؛ لأنها أشق الأعضاء إصلاحًا على المجتهد، وأعظمها ضررًا؛ لأن منها تهيج الأمور في الأعضاء من قوة وضعف وعفة .. وغير ذلك (الغزالي، الاحياء، 2007، 103/3) هذا عن أهمية الجوع بالنسبة للجوارح والشهوات.

أما عن أهميته الإيمانية فيقول الغزالي أيضًا: " إنه ينقص دم القلب ويبيضه، وفي بياضه نوره، ويذيب شحم الفؤاد، وفي ذوبانه رفته، وفي رفته مفتاح المكاشفة، كما أن قساوته سبب الحجاب، فإذا نقص دم القلب ضاق مسالك العدو، فمجاريه هي العروق الممتلئة بالشهوات، ولهذه الفوائد السابقة للجوع ما يوافقها من سنة الرسول ﷺ إذ يقول: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ» (البخاري، الصحيح، 3، 1195/1987).

وتكمن أهمية الجوع وفضيلته أيضًا في أنه: " يُعين على سهر الليل فالمعدة المثقلة بالطعام تحرم صاحبها الإقبال على العمل، وتدفعه إلى الكسل، وربما أدت به إلى النوم فيحرم من آداب التهجد وسائر العبادات، لأن الجوف إذا خلا من الامتلاء كان أرق للقلب وأعذب للتلاوة وأدوم للقيام وأقل للمنام (عبد الحميد مذکور، ابو طالب المكي، 1972، 172) وقال يحيى بن معاذ عن فضل الجوع وآفة الشبع: "الجوع نور، والشبع نار: والشهوة مثل الحطب الذي يتولد منه الاحتراق، ولا تطفأ ناره حتى يحرق صاحبه" (القشيري، الرسالة القشيرية، 1966، 142)، وذلك كناية عما يسببه الشبع من ارتفاع الشهوة حتى تحرق صاحبها بالذنوب والمعاصي، فيكون جزاؤه الإحراق في نار جهنم والعياذ بالله.

وبناء على ما سبق ففي الجوع خير كثير وهو يساعد صاحبه على الطاعة وينقذه من الشهوات والملذات والتكاسل عن الطاعات التي يسببها الشبع، وهذا من أهم واجباتهم، فالصوفي يخاف شهوة الطعام والشراب، وهو على حق، فكل الرذائل تصدر عن الطعام والشراب، وما أمن إنسان غوائل ما يأكل ويشرب إلا انقلب إلى إنسان سفیه ممقوت (زكي مبارك، التصوف الاسلامي، د/ت، 295/2) وإلى جانب ذلك يبغض الصوفي الشبع ويعتبره من الموبقات ويرى في الجوع فوائد كثيرة منها: "صفاء القلب ورقته، وإيقاد القريحة، ونفاذ البصيرة، فإن الشبع يورث البلادة ويعمي القلب" (زكي مبارك، التصوف الاسلامي، د/ت، 260/2) ، ولكن ما فوائد الجوع عند الصوفية؟.

فوائد الجوع عند الصوفية:

مما سبق من كلام الصوفية عن الجوع وأثره في السالكين وأهميته بالنسبة للعبد المجتهد الذي يسعى نحو الهداية؛ تبيّن لنا كثير من الفوائد التي سببها الجوع، ولقد أورد أبو حامد الغزالي جملة من فوائد أثر الجوع في كتابه الإحياء نذكرها فيما يلي:

1- صفاء القلب وإيقاد القرحة:

فالمقصود من العبادات الفكر الموصل إلى المعرفة والاستبصار بحقائق الحق؛ فالجوع يفتح الذهن إلى المعرفة، والمعرفة باب من أبواب الجنة، وملازمة الجوع قرع لباب الجنة (الغزالي، الإحياء، 2007، 95/3).

2- الانكسار وزوال البطر:

فالجوع يكسر طغيان النفس ويزيل عنها البطر والفرح والأشر، وبه تسكن النفس لربها وتخضع له، وتقف على عجزها وذلتها، وسعادة الإنسان أن يشاهد نفسه بعين الذل والعجز، ويشاهد مولاه بعين العز والقدرة؛ فليكن العبد دائماً جائعاً (الغزالي، الإحياء، 2007، 95/3).

3- تذكر جوع الفقير والآخرة:

حيث إن الجوع يذكر العبد بما يعانيه الخلق يوم القيامة من جوع وعطش، فالجوع يذكر العبد عذاب الآخرة وآلامها، وبالجوع يتنبه العبد إلى ما يعانيه الفقير الذي لا يجد قوت يومه! وفي ذلك ما يدعو إلى الرحمة والشفقة (الغزالي، الإحياء، 2007، 95/3)..

4- كسر شهوة المعاصي:

منشأ المعاصي كلها من الشهوات والقوى، ومادتها الأطعمة والأشربة، فالتقليل من الطعام يضعف الشهوة ويكسرها ويستولي على النفس الأمانة بالسوء، وأقل ما يندفع بالجوع: شهوة الفرج والكلام، ويتخلص العبد من شهوة الفرج والكلام ويسلم من آفات اللسان التي يساعد عليها كثرة الشبع (الغزالي، الإحياء، 2007، 96/3).

5- دفع النوم:

لأن الشبع يملأ المعدة فيحسن إلى العبد النوم والكسل، قال بعض الصوفية: "يا معاشر المريدين لا تأكلوا كثيراً فتشربوا كثيراً، فترقدوا كثيراً فتخسروا كثيراً" (الغزالي، الإحياء، 2007، 97/3) فالجوع يقلل من النوم ويساعد على السهر للعبادة.

6- تيسير المواظبة على العبادة:

الصوفية ابتعدوا عن كل ما يشغلهم عن مجاهدتهم وعبادتهم لربهم، وهم يعتبرون تضييع الإنسان لوقته بسبب شراء الطعام وطبخه وإصلاح شأنه ثم مضغه وغسل اليدين وكثرة التردد إلى بيت الماء لكثرة

شربه وهكذا، والأوقات المعروفة لهذا الغرض فلو صرفها العبد إلى الذكر والمناجاة وسائر العبادات لكثير ربحه (الغزالي، الاحياء، 2007، 97/3).

7- صحة البدن:

يستفيد العبد من قلة الأكل، صحة البدن، ورفع الأمراض التي يسببها كثرة الأكل وحصول فضلة الأخلاط في المعدة، فيصيب الإنسان بالمرض، والمرض يمنع العبادات ويشوش على القلب، ويمنع الذكر والفكر، وكل ذلك يحتاج إلى شئون ونفقات، وفي الجوع ما يمنع ذلك كله. وقد ثبت أن امتلاء المعدة باستمرار يسبب كثيراً من الأمراض؛ ولذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن، بحسب ابن آدم لقيمات يُقمن صلبه، فإن كان لا محالة: فثُلث لَطْعَامِهِ، وثُلث لَشْرَابِهِ، وثُلث لِنَفْسِهِ» (ابن ماجه، السنن، 1986، 448/4).

8- خفة المؤونة:

من تعود الجوع كفاه اليسير، ومن تعود الشبع صار بطنه غريماً، فيدخل المداخل ليكتسب الحلال والحرام فيذل، ولكن من يقتصر على القليل يخف عنه المؤونة ولا يكلفه ما لا يُطيق (الغزالي، الاحياء، 2007، 97/3).

9- الإيثار والتصدق:

من فضائل الجوع وفوائده الإيثار والتصدق بفضل الطعام، فمن عود نفسه الجوع مكنه التصدق بما فضل ويزيد عن حاجته إلى اليتامى والمساكين والمحتاجين، ليكون يوم القيامة في ظل صدقته فالتصدق بفضل الطعام أولى من التخمة والشبع، فلو صرف المترف فضل طعامه إلى الفقير، ليدخر به الأجر لكان خيراً له من أن يأكل فيتضاعف عليه الوزر (الغزالي، الاحياء، 2007، 99/3) روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم " نظر إلى رجل سمين البطن فأوماً إلى بطنه بإصبعه وقال: «لَوْ كَانَ هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا كَانَ خَيْرًا لَكَ» (أحمد بن حنبل، 1998، 471/3) أي لو قدمته لآخرتك وأثرت به غيرك، كان لك الأجر والثواب عند الله تعالى، هذه أهم الفوائد التي هي سببها الجوع وقلة الشبع.

مقارنة بين المنهجين

أولاً: ما اتفقا عليه:

- 1- أهمية الجوع عند كل من الفلاسفة والصوفية، وأنه أحد أركان مجاهدة النفس.
- 2- دعوة كل منهما إلى ملازمة الجوع والتحذير من الشبع وكثرة الأكل حتى الامتلاء.
- 3- الاكتفاء من الطعام والشراب على قدر الحاجة
- 4- الجوع يكسر طغيان النفس ويقل تحركها نحو الشر.

5- للجوع فؤاد تعود على العبد في دينه ودنياه.

ثانياً: ما اختلفا فيه:

1- الفلاسفة لم يتكلموا كثيراً عن أهمية الجوع باعتباره أحد أركان المجاهدة، وإنما لذي بعضهم ذكر منه.

2- أما الصوفية فقد اهتموا به اهتماماً بالغاً، حيث جعلوه أحد آدابهم وشروطهم وكثرت

الحكايات عنهم في ذلك.

3- إن الجوع عند الفلاسفة ليس المقصود به قلة الأكل والشرب لحاجة، ولكنه أسلوب تأديب

وتهذيب لشهوة البطن ومجاهدة للنفس لا عن حاجة وعوز، ولكن كركن من أركان المجاهدة.

الْخُلَاصَةُ

الجوع أحد أركان مجاهدة النفس، وأنه مأمور به في القرآن الكريم والسنة النبوية، وتكلم فيه الفلاسفة والصوفية وبالجموع يستطيع المرء التغلب على شهواته لحواسه، وأن الطعام بالنسبة للعبد لا بد أن يكون كالدواء يأخذ منه على قدر الكفاية دون الإسراف والتلذذ، ووضح الفلاسفة أن الجوع به فوائد تعود على الفرد، وتعينه على طاعة الله تعالى بخلاف الشبع، فإنه يورث الكسل وبلادة القلب وأن الصوفية يعتبرون الجوع أحد آدابهم وواظبوا عليه، وانطلق لسان حالهم بالدعوة إليه والحث عليه والجوع له أثره العظيم في مجاهدة النفس وآفاتنا والتحكم في الشهوات التي يسببها الشبع، وبالجموع يرق القلب ويعين على سهر الليل، وإذا التزم العبد بالجوع ومارسه عملياً ابتغاء وجه الله تعالى، ومجاهدة لنفسه ساعده ذلك على الالتزام بالطاعات والبعد عن الكسل، والتقليل من الشهوات، إذن الجوع من أهم أركان مجاهدة النفس ليصل العبد إلى سعادة الدنيا والآخرة.

2- السهر:

السهر من الوسائل العملية لمجاهدة النفس، والتغلب عليها، ومنعها من النوم والراحة لتنشط للعبادة والسهر لغة: من سهر سهراً: لم ينم كل الليل أو بعضه (المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، 1985، 475/1) وهو لا يعني عدم النوم فقط، بل يعني عدم النوم بالليل للقيام بواجب العبادة لله تعالى من الصلاة والذكر، وقراءة القرآن الكريم، والتفكير في مخلوقات المولى عز وجل، سهر العبد في طاعة ربه تبارك وتعالى قائماً بالفرائض والنوافل، مجاهداً لنفسه، طالبا من ربه القبول والثواب، ولقد مدح الله عباده المؤمنين القائمين بواجب العبودية فقال تعالى: ﴿ نَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (سورة السجدة، الآية: 16) ومن صفات المتقين قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي

جَنَّتْ وَعُيُونِ عَاخِذِينَ مَا ءَانَتْهُمْ رُبُّهُمْ إِتْمَهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَإِلَاحَارِهِمْ سَتَعَفْرُونَ ﴿ (سورة الذاريات، الآية: 15-18)، ومن صفات عباد الرحمن قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ (سورة الفرقان، الآية: 64) حينما يسهر في طاعة الله تعالى يستطيع بذلك أن يجاهد نفسه، ويهجر النوم بعض الليل أو أكثره ليحصل له الأناس بالله تعالى، ومقاومة الكسل، والقيام بحق العبودية، لا يعني ذلك عدم العمل بالنهار، فالإسلام لم يأمر بهذا.

أولاً: السهر عند الفلاسفة:

يمثل الفلاسفة في هذا المبحث مسكويه حيث تكلم دون غيره من أصحاب الفلسفة النظرية العملية عن السهر كركنٍ من أركان المجاهدة، ولذلك نرى أنه بيّن لنا مدى أهمية السهر وفضله للقلب والنفوس، فينصح السالك بعدم الإكثار من النوم بالليل، فيقول: " ينبغي أن يمنع نفسه من النوم الكثير، فإنه يقبحه، ويغلظ ذهنه، ويميت خاطره، هذا بالليل، فأما بالنهار فلا ينبغي أن يتعوده البتة (مسكويه، تهذيب الأخلاق، 1985، 63)، وهنا نرى أنه أيضاً يكره للسالك كثرة النوم بالليل، بل يشتغل بالعبادة، ولئلا يحتج العبد أنه قائم الليل، فينام معظم النهار، وعليه فإن مسكويه يمنع النوم مطلقاً بالنهار، حتى لا يضيع العمل والسعي، ويتوكل بل عليه أن يجاهد نفسه بعدم النوم نهاراً، والاكتفاء بقليله ليلاً.

ثانياً: السهر عند الصوفية:

يهتم الصوفية بالسهر، ويجعلونه أحد أركانهم التي يعرفون بها، ويحثون أتباعهم على المحافظة عليه، وهو أحد أركان مجاهدة النفس عندهم، ومتبعين في ذلك منهج القرآن الكريم والسنة النبوية، قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (سورة الزمر، الآية: 9) ولقد كان من آداب الصوفية: " قلة الأكل والنوم (السلمي، جوامع آداب الصوفية، 1999، 14)، فهم في جوع وسهر إلا على قدر الحاجة الضرورية للجسد من الطعام والنوم، وأبو طالب المكي حذر من كثرة النوم، وحث على السهر لما في السهر من فائدة، فقال: " ففي مداومة النوم طول الغفلة، وقلة التعقل، ونقصان الفطنة، وسهوة القلب، وفي هذه الأشياء الفوت، وفي الفوت الحسرة بعد الموت (المكي، قوت القلوب، 2007، 180/1).

فقد ذكر المكي آفات النوم التي تتمثل فيما يلي:

1. طول الغفلة وسهوة القلب.
2. قلة العقل ونقصان الفطنة.

وفي هذه الأشياء يفوت الإنسان كثيرًا من الخير، فيتحسر ويندم وقت لا ينفع الندم، ولقد جعل السلمي قلة النوم أحد الواجبات التي على الشيخ أن يدل مُريدهُ عليها في بداية سلوكه لطريق ربه عز وجل، ثم جعل السلمي السهر مرة من شرائط التصوف، وثانية من آداب الصوفية؛ ذلك لأن المرید يحتاج إلى السهر، وإحياء الليل بالطاعة والصلاة، فكثرة النوم تؤدي إلى الكسل، والسلمي كذلك يجعل أحد آداب الصوفية اجتناب الكسل والضجر، ومن آدابهم: عدم النوم إلا عن غلبة (محمد صلاح عبدة، جهود السلمي في التصوف، 1991، 201)، فالسهر وقلة النوم من واجبات التصوف، ومن آداب الصوفية، وبالسهر يروض العبد نفسه على الطاعة، ويكفها عن المعصية لأنه إذا كان معظم ليله ساهرًا في طاعة الله فلا ينبغي له أن يرتكب الآثام والمنكرات في نهاره، بل يظل محافظًا على ما كان عليه بالليل منتقلًا من عبادة إلى عبادة، ومن طاعة إلى أخرى، مرتقيًا من الحسن إلى الأحسن.

وهكذا ولأهمية السهر وفضله نبه الغزالي على بعض فوائده، فقال: " أما السهر فإنه يجلو القلب، ويصفيه وينوره، فيضاف إلى الصفاء الذي حصل من الجوع، فيصير القلب كالكوكب الدري، والمرأة المجلوة الصافية، فيلوح منه جمال الحق، ويشاهد فيه رفيع الدرجات في الآخرة، وحقارة الدنيا وآفاتها (محمد صلاح، جهود السلمي في التصوف، 1991، 20) وقد أشار إلى أن القلب يصفو وينور بالسهر، ويجعل السهر نتيجة الجوع، فإن السهر مع الشبع غير ممكن؛ لأن المعدة إذا امتلأت غلبت صاحبها على النوم، أما الجوع فإنه يساعد على اليقظة والسهر بهذا تدرك قيمة السهر، وأنه أحد أركان مجاهدة النفس عند الصوفية.

مقارنة بين المنهجين في السهر

أولاً: ما اتفقا عليه:

- 1- اتفق كلٌّ من المنهجين على أهمية السهر بالنسبة للعبد السالك طريق الاستقامة ناويًا تهذيب نفسه، ورياضتها.
- 2- كما اتفقا على أن السهر لا يقصد به عدم النوم طوال الليل، وإنما المقصود به الاكتفاء بالقليل من النوم، الذي يحصل به راحة البدن والكسل بدون فائدة.
- 3- اتفقا أيضًا على أن السهر يكون في طاعة الله وعبادته، وليس السهر من أجل السهر فقط.

ثانياً: ما اختلفا فيه:

- 1- لم يذكر الفلاسفة عدا مسكويه أن السهر ركنٌ من أركان مجاهدة النفس أما الصوفية فإنهم يعتبرونه أحد آدابهم، وأحد أركان مجاهدة النفس ليصل إلى تهذيبها وتركيتها.
- 2- لم ينبه الفيلسوف مسكويه على فضائل السهر، كما نبه عليها الصوفية كما سبق.

الْخُلَاصَةُ

السهر يعني ترك النوم والراحة، والقيام لطاعة الله تعالى بأي عمل أو قول أو فعل يقصد به وجه الله سبحانه وتعالى، ويساعد هذا العمل في إيقاظ الهمة في الطاعة ومحاربة للنفس في طلب النوم والراحة، ومجاهدة لصفاتها وشهواتها، حتى تدعن للحق وتتبع عن الغي، وبالسهر يجلو القلب، ويصفو ويدوم اتصاله بربه تبارك وتعالى وخاصةً في الأوقات التي يغفل عنها كثير من الناس، وإننا بحاجة ماسة للسهر في طاعة الله تعالى بقيام الليل والتعبد والتفكر في مخلوقات الله تعالى وآلائه، حيث أمرنا بها القرآن الكريم والسنة النبوية، وبثيب الله القائمين بذلك خيرًا، فلنمتثل لأمر الله تعالى، ونقتدي بسنة النبي صلى الله عليه وسلم بإحياء الليل بالعبادة، والنهار بالسعي والعمل لنحظى بخيري الدنيا الآخرة.

3- الصمت:

الصمت: هو الركن الثالث من أركان المجاهدة، والصمت لغة: من صمت صموتًا وصماتًا: لم ينطق، ويقال لغير الناطق صامت ولا يقال ساكت، والصامت الساكت وما لا نطق له، والجمع صموت وصوامت (المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، 1985، 542/1) والإنسان الصامت هو من يسكت عن الكلام الذي لا فائدة منه، وهو أن يُمسك على ما في نفسه منه بالصبر ولا يظهر له أثرًا اتباعًا لقوله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة آل عمران، الآية: 143) وكظم الغيظ رده في الجوف، يقال: كظم غيظه أي سكت (صمت) عليه، ولم يظهره مع قدرته على إيقاعه بعدوه (القرطبي، تفسير القرآن، 1996م، 206/4).

وعليه فإن الصمت صفة الأخيار الذين لا يتكلمون إلا فيما يفيد العبد في دينه ودنياه؛ كقول خير وذكر أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو نصيحة، وما عدا ذلك فالصمت أفضل، والعبد مطالب بالصمت كي ينجو من لغو الكلام والرفث والفسوق والغيبة والنميمة والكذب والبهتان وسائر الآفات التي يسببها النطق والكلام، وعلى العبد أن يكون صمته فكرًا، ونطقه نكرًا، ونظره عبرًا كما كان النبي صلى الله عليه وسلم، ولا بد أن نفرق بين من صمت دون داع من وازع من دين وخلق، والصمت من حيث عدم الخوض في الكلام دون فائدة عاجلة أو آجلة يبتغى بها وجه الله تعالى، وهنا يقول الأصفهاني: " الصمت من حيث هو صمت مذموم، فذلك من صفات الجمادات، فضلًا عن الحيوانات؛ حيث جعل الله بعض الحيوانات بلا صوت، وجعل لبعضها صوتًا بلا تركيب، ومن مدح الصمت، فاعتبارًا بمن يُسيء في الكلام فيقع منه جنائيات عظيمة في أمور الدين والدنيا (الأصفهاني، الذريعة إلى مكارم الشريعة، 1987، 269/1)، كما أن الإنسان إذا أصبح كفرت أعضاؤه لسانه مصداقًا لقوله صلى الله عليه وسلم: « إذا

أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ الْأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكْفِّرُ اللِّسَانَ فَنَقُولُ: اتَّقِ اللَّهَ فِينَا فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِنْ اسْتَقَمَّتْ اسْتَقَمَّتْنَا وَإِنْ اعْوَجَّجَتْ اعْوَجَّجْنَا» (الترمذي، السنن، 1977م، 605/4) ولكن متى يكون الصمت مناسباً؟
 يقصد الأصفهاني بأن الصمت المطلوب يكون عن الجنايات التي تأتي من سيء الكلام فيكون الصمت عن الكلام بالنسبة له أفضل وأبلغ، أما الصمت بوجه عام فمذموم لأنه من صفات الجمادات، أما من يخشى أن يقع بكلامه في مكروه فالصمت بالنسبة له واجب، ولكن ما أهمية الصمت وفضله؟
أولاً: أهمية الصمت وفضله عند الفلاسفة:

يقول الماوردي: "الكلام ترجمان يُعبر عن مستودعات الضمائر ويخبر المكونات السرائر لا يمكن استرجاع بواده، ولا يقدر على رد شوارده، فحق على الناقل أن يحذر من ذلة اللسان، وذلك بالإسكاف عن الكلام، أو الإقلال منه، ومن ثم الزام وجوب الصمت إلا من ضرورة لا يجد من الكلام فيها بد ليسلم من هذا الاسترسال ويأمن من معرة الطيش (الماوردي، أدب الدنيا والدين، 1987، 228-265) وفي هذا تنبيه من الماوردي إلى خطورة الكلام وفضيلة الصمت، حينما يهتم الإنسان بالوقوع في المحذور قال تعالى: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (سورة ق، الآية: 18)

وكما يقول الماوردي أيضاً: "أن الحاجة إلى الصمت أكثر من الحاجة إلى الكلام، لأن الحاجة إلى الصمت عامة والحاجة إلى الكلام عارضة، فوجب أن يكون صمت العاقل في الأحوال أكثر من الكلام في كل حال (الماوردي، تسهيل النظر وتعجيل الظفر، 1988، 60)، فعلى هذا يكون الصمت أكثر من الكلام ليسلم العبد من آفات اللسان، فإن لم يكن للمرء بد من الكلام فعليه أن يلتزم بأدابه، التي ذكرها الماوردي وهي:

- 1- أن يكون الكلام لداع يدعو إليه، إما لجلب نفع أو لدفع ضرر.
 - 2- أن يأتي الكلام في موضعه ويتوخى به إصابتة فرصته .
 - 3- أن يقتصر منه على قدر الحاجة.
 - 4- أن يتخير اللفظ الذي يتكلم به (الماوردي، أدب الدنيا والدين، 1987، 266)
- فإذا تكلم العبد فلا يتكلم إلا لخير، أو دفع ضرر، أو أمر بمعروف، أو نهى عن منكر وليكن مع ذلك مخلصاً في قوله لا رياءً ولا نفاقاً.

ولأهمية الصمت وباعتبار أنه يعين المرید على التفكير والتأدب، ويساعده على الذكر والتسبيح يقول مسكويه: "على العبد أن يُعَوِّد على قلة الكلام، وأن لا يتكلم إلا جواباً، وأن يمتنع من خبيث الكلام وهجينه، ومن السب واللعن ولغو الكلام، ويُعَوِّد حُسْنَ الكلام وظريفه، وجميل اللقاء وكريمه، ويُعَوِّد عدم

الكذب والحلف ويلتزم الصمت" (مسكويه، التهذيب، 1985م، 48)، وعلى كل فترجع أهمية الصمت عند الفلاسفة في أن الصمت فيه الخير والسلامة من آفات اللسان من الكذب والبهتان، ولغو الكلام وسائر الرذائل التي سببها كثرة الكلام بغير داعٍ ودون فائدة، فإذا كان العبد لابد متكلماً؛ فعليه أن يلتزم بأداب الكلام.

ثانياً: أهمية الصمت وفضله عند الصوفية:

للصمت عند الصوفية أهمية كبرى حيث جعلوه من أركان المجاهدة وضمن آدابهم التي يتمسكون بها يقول أبو طالب المكي: " الصمت يلحق العقل ويعلم الورع ويجلب التقوى ويجعل الله عز وجل به للعبد: التأويل الصحيح، والعلم الراجح والقول السديد والعمل الرشيد (المكي، قوت القلوب، 2007، 176/1).

ولقد وردت أخبار كثيرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تأمر بالصمت وتنتهي عن الكلام الذي يجر إلى المهالك، فيقول: « تَكَلَّمْتُكَ أُمَّكَ يَا مُعَاذُ وَهَلْ يَكُوبُ النَّاسُ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ » (الترمذي، السنن، 1977، 233/9) وقوله صلى الله عليه وسلم: « لَا يَسْتَقِيمُ إِيْمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ » (أحمد بن حنبل، المسند، 1988، 198/1).

ولقد أدرك الصوفية أهمية الصمت وفضله فكان من آدابهم: "ترك الكلام على عوام الناس؛ إلا أن يجد مريداً طالباً المقصودة فيتكلم عليه بمقدار ما يدلّه، ولا يزيد على ذلك" (السلمي، جوامع آداب الصوفية، 1999، 68) أي أن الصوفي لا يتكلم إلا حينما يُسأل عن أمر هام أو داعٍ لذلك، فيتكلم الصوفي على قدر الحاجة دون فضول وكان الصوفية يخالفون أنفسهم بعكس قصدها فمن آدابهم: "سكوتهم عن شهوة الكلام وكلامهم عند شهوة السكوت" (السلمي، جوامع آداب الصوفية، 1999، 68) ولقد كان من شدة حرص الصوفية على ملازمة الصمت أن بعضهم كان يضع حصاة في فمه حتى إذا هم بالتكلم تلجج لسانه فيسكت، وقال بعضهم جعلت على نفسي بكل كلمة أقولها فيما لا يعنيني صلاة ركعتين فسهل عليّ ذلك، فجعلت على نفسي لكل كلمة أقولها فيما لا يعنيني صوم يوم فسهل على ذلك، ثم جعلت بكل كلمة أقولها أتصدق بدرهم فصعب على ذلك، فانتهيت (المكي، قوت القلوب، 2007، 176/1).

فانظر كيف كان هؤلاء يحذرون من لغو الكلام ويجاهدون أنفسهم لمنعها عن اللغو والتزامها بالصمت، بل وصل الأمر باهتمامهم بالصمت وعدم الكلام أن العبد لا يمتنع من لغو الكلام، وآفات اللسان فقط، ولكنه يمتنع عن الكلام عن كل ما يراه أثناء المكاشفة فلا يخبر به أحداً ولا يؤذن له في الإخبار عنها (السلمي، منهاج العارفين، 1993، 167)، فهم يعتبرون أن ما يصدر حال المكاشفة سراً لا ينبغي للمريد أن يبوح به، وهذا من جملة الصمت المطالب به العبد، وإذا نظرنا إلى أبي حامد الغزالي

فيما قاله عن الصمت نراه قد حذر من آفات اللسان التي سببها الكلام وعدم الصمت، مستند إلى ما جاء في القرآن الكريم، وما جاء في السنة النبوية من تحذير من آفات اللسان، ثم ذكر آفات اللسان وعد منها عشرين آفة كما يلي:

1- آفات اللسان:

- 1- الكلام فيما لا يعنى.
- 2- الخوض في الباطل.
- 3- المراء والجدال.
- 4- الخصومة.
- 5- التقعر في الكلام بالتشوق والتكلف.
- 6- الفحش وبذاءة اللسان.
- 7- اللعن.
- 8- الغناء والشعر.
- 9- المزاح.
- 10 - السخرية والاستهزاء.
- 11 - إفشاء السر.
- 12 - الوعد الكاذب.
- 13- الكذب في القول واليمين.
- 14 - الغيبة.
- 15- النميمة.
- 16 - ذو اللسانين.
- 17- المدح.
- 18- الخطأ والغفلة في فحوى الكلام بحيث يكثر سقطه (الغزالي، الاحياء، 2007، 58/3).

وهذه الآفات السابقة سببها الكلام الذي يؤدي بالعبء إلى ما يناله من عقاب ودم ولوم، والسلامة من هذا كله إنما يكون بالصمت، وعدم الكلام إلا بخير وبر أو أمر بمعروف ونهى عن منكر أو نكر الله تعالى مما ندب إليه الشرع، (الغزالي، الاحياء، 2007، 58/3) ولذلك ورد في الحديث عندما سأل عقبة بن عامر رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَلْيَسْغُكْ بَيْتُكَ وَأَنْكِ عَلَى حَطِيئَتِكَ» (الترمذي، السنن، 1977، 605/4)

لكل هذا ولغيره كان للصمت أهمية كبرى في حياة المسلم حيث يأمن شر لسانه لأنه الطلب عن كل ما ينطق به، والسلامة من آفات اللسان والكلام تكون بالصمت، والصمت أحد أركان مجاهدة النفس.

مقارنة بين المنهجين في الصمت

أولاً: ما اتفقا عليه:

- 1- الصمت من صفات الأخيار.
- 2- الصمت ضرورة إذا لم يكن للكلام فائدة.
- 3- الصمت ركنٌ قوي في مجاهدة النفس.

ثانياً: ما اختلفا فيه:

- 1- أن الفلاسفة لم يسهبوا في الكلام في الصمت كما فعل الصوفية.
- 2- أن الفلاسفة جعلوا الصمت أفضل من الكلام إذا لم يكن للكلام داع، أما الصوفية جعلوا الصمت أحد آدابهم التي يعرفون بها.
- 3- الفلاسفة لم يذكروا الآفات التي سببها الكلام كما فعل الصوفية.

الْخُلَاة

أن الصمت من صفات المؤمنين الذين يصونون أنفسهم عن اللغو والرفث والكذب والبهتان، والكلام ليس ممنوعاً في حد ذاته إلا إذا كان للكلام داع من أمر بالمعروف أو نهي عن منكر أو نصيحة أو مدارس علم أو ذكر الله تعالى أو تسبيح أو غير ذلك من أقوال الخير التي أمر بها الإسلام وحثنا عليها، أما فيما عدا ذلك مما يسببه الكلام من الجنايات، فالسكوت عنه أفضل؛ لذلك كان الصمت أحد أركان مجاهدة النفس لتنتهي عما حرمه الله تعالى، فتتهذب النفس وتصح مجاهدتها.

4- الخلوة والعزلة:

الخلوة والعزلة هما الركن الرابع من أركان مجاهدة النفس. **الخلوة لغة:** هي مكان الانفراد بالنفس أو بغيرها، (مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، 1980، 260) وهي: محادثة السر مع الحق، حيث لا أحد ولا ملك (الجرجاني، التعريفات، 2005، 194)، و **العزلة لغة:** هي من اعتزل الشيء: بعد عنه وتتحى، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّرُؤُوسًا إِلَى فَاَعْتَزِلُوا﴾ ، (سورة الدخان، الآية: 21) والعزلة هي: الانفراد، (مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، 1980، 260) وهي الخروج عن مخالطة الخلق بالانزواء والانقطاع، (الجرجاني، التعريفات، 2005، 194) فالخلوة تكون مع الخالق، والعزلة تكون عن الخلق، والخلوة التي نقصدها أن يختلي المؤمن بنفسه ولو لساعة واحدة في ليل أو نهار، يراجع فيها أعماله وأقواله يحاسب نفسه.

أولاً: أهمية الخلوة والعزلة عند الفلاسفة:

تكمن أهمية الخلوة والعزلة عند الفلاسفة في أنهما أحد أركان مجاهدة النفس بالنسبة للمريد "في بداية طريقه إلى الله يصطنعها السالك ليفر خلالها من كل ما يترتب على معاشرته الناس أمر يشغله عن الله، ويبتعد عن سائر الشواغل والحجب الدنيوية المتعددة، ليزداد قرباً من الله وفرحاً بالسير إليه سبحانه وتعالى، ولا يفكر إلا فيه، ولا يذكر إلا إياهن ولا يرى غيره ولا يتصل إلا به" (كوكب عامر، التصوف عند ابن سينا، 1981، 186) ، والخلوة والعزلة لا تعنى اعتزال العبد لمن يحيطون به، وما يعج به العالم الخارجي من حوله من شواغل فقط، وإنما تعنى أيضاً اعتزاله لكل ما يرد على خاطره من أفكار شاغلة تحجبه عن التفكير في الله تعالى تفكيراً كاملاً يملك عليه كل كيانه (كوكب عامر، التصوف عند ابن سينا،

1981، 186) أي يجب على المرید ألا یعتزل الناس فقط ولكن یعتزل الأفكار التي تبعده عن الله فتكون العزلة عما سوى الله تعالى قلباً وقلماً.

فإذا خلا الإنسان بنفسه وخلا بفكره في ملكوت السماوات والأرض: انعكس ذلك على قلبه صلاحاً، فما دام الإنسان يخالط، فصفاء قلبه ضعيف، وانطباع الأشياء في هذا القلب قوى، ورب عزلة فيها فكر وذكر تساعده على جلاء مرآة قلبه (سعيد حوي، تربتنا الروحية، 1999، 168) وما دام الإنسان في خلطة فكثير من مثيرات الشهوات يمكن أن تجر قلبه، والخلوة العزلة مقطعة مثل هذا فيتحرر قلبه من رق الشهوات، وما دام الإنسان في خلطة فالغفلة تغلبه، فإذا أتحت له عزلة مع ذكر وفكر، فإن ذلك يساعده على يقظة قلبه، ويؤكد القشيري أن: "العزلة والخلوة صفة أهل الصفوة، ومن أمارات لوصلة، وهي لازمة للمريد في ابتداء حاله عن العزلة عن أبناء جنسه، ثم في نهايته من الخلوة لتحققه بأنسه (القشيري، الرسالة القشيرية، 1966، 102).

كما كان من آداب الصوفية: الخلوة، والعزلة، فإن فيهما الخير قال السري: "الخلوة تورث خمسة أشياء: الراحة من خلطاء السوء، الزهد في الدنيا، الصمت، الشعور بحلاوة العمل إذا غاب عن أعين الناس، ترك الازدراء على الناس حين لا يرى أحد يعصى الله" (السلمي، جوامع آداب الصوفية، د-ت، 37) ولا بد للعبد أن يراعي الأدب مع الله في حال الخلوة، ولكن ما فوائد الخلوة والعزلة عند الصوفية؟.

ثانياً: أهمية وفوائد الخلوة والعزلة عند الصوفية:

للخلوة والعزلة فوائد كثيرة غير ما سبق نذكر أهمها كما يلي:

- 1- صيانة الجوارح.
- 2- فراغ القلب.
- 3- سقوط حقوق الخلق.
- 4- إغلاق أبواب الدنيا.
- 5- كسر سلاح الشيطان.
- 6- عمارة الظاهر والباطن (الغزالي، منهاج العارفين، منهاج العارفين، 1996، 81).
- 7- الإخلاص في القول والعمل، قال ذو النون المصري: "لم أر شيئاً أبعث على الإخلاص من الخلوة" (القشيري، الرسالة القشيرية، 1966، 104).
- 8- بالخلوة والعزلة يسلم العبد في دينه وقلبه من الشواغل والمخالطة، قال الجنيد: "من أراد أن يسلم له دينه ويستريح بدنه، فليعتزل الناس، فإن هذا زمان وحشة، والعامل من اختار فيه الوحدة" (القشيري، الرسالة القشيرية، 1966، 104).

9- الخلوة دواء للقلب، لأنها تفرغ القلب من الخلق، وتجمع الهم بأمر الخالق، وتقوي العزائم على الثبات (القشيري، الرسالة القشويّة، 1966، 104).

10- الخلوة تقلل الأفكار في عاجل حظوظ النفس، لفقد مشاهدتها بالأبصار، وتتجلى فيها أفكار الآخرة، وتجدد الاهتمام بها (القشيري، الرسالة القشويّة، 1966، 104).

ويدرك المرید فائدة العزلة والخلوة إذا وجد فيها من الخير ما لا يجده في الجماعة، يجد في السر من النشاط والقوة ما بعده في العلانية، ويكون أنسه في الوحدة وروحه في الخلوة، وأحسن أعماله في السر (المكي، قوت القلوب، 2007، 178) وفي ذلك ما يدعو إلى الإخلاص والتجرد عن الرياء والنفاق، والبعد عن أعين الناظرين، ولذلك يقول ابن المبارك: من وفق للعزلة والخلوة فقد أراد الله له الخير والسلامة، وقيل: " إذا أراد الله أن ينقل العبد من ذلة المعصية إلى عز الطاعة أنسه بالوحدة وأغناه بالقناعة، وبصره بعيوب نفسه، فمن أعطي ذلك فقد أعطى خيراً من الدنيا والآخرة (القشيري، الرسالة القشويّة، 1966، 104)، وإن كان للخلوة والعزلة هذه الفوائد والفضائل، فهل الخلوة والعزلة تعني الانقطاع والانعزال عن جميع الخلق؟.

نقول: إن الإنسان لا يستطيع أن يعزل ويخلو بنفسه عن جميع الخلق، ويقعد عن الكسب، ولا يخالط الناس، ولا يعاونهم، وإنما ينبغي أن يحضر الجماعات والتجمعات، ويعود المرضى، ويُشيع الجنائز، ويحضر مجالس العلم، فهذا أمر لا بد منه وهو واجب على المسلم، وإنما المقصود أن يعمل العبد ويسعى ويؤدي فرائض ربه تبارك وتعالى، ويشارك إخوانه، ولا يمنعه ذلك أن يختلي بنفسه بعضاً من الوقت، ويعتزل سائر الخلق، ويجلس بينه وبين نفسه يصلح فسادها، ويقيل عثراتها، ويحاسبها على تقصيرها وخطئها، وليس ذلك فقط، وإنما يغتنم الخلوة والعزلة في طاعة الله تعالى وذكره وعبادته، والتفكر في مخلوقاته وآلائه، وليكن ذلك على الأقل في اليوم ساعة أو ساعتين، فإن الخلق في غفلة معرضون وخاصة في هذا العصر الذي تقارب فيه الزمن، وانشغل الناس بدنياهم، وكثر العبث واللغو، فنحتاج اليوم إلى خلوة وعزلة إيجابية بعض الوقت، وليس الانقطاع والانعزال بشكل دائم، ولكن ما أنواع العزلة؟.

- أنواع العزلة:

- 1- عَزَلَةٌ عن الكفر والفسوق والنفاق، وأهل ذلك ومجالسهم، وهذه العزلة واجبة.
- 2- عَزَلَةٌ عن عامة الناس وعن الأهل والعشيرة، وكل مخالفة من شأنها أن تشغل العبد عن ربه عز وجل، وهذه مندوبة.

3- عزلة واعتزال عن كل ما يرد على خاطر من أفكار وشواغل تحجبه عن التفكير والتذكر الله تعالى، وهذه عزلة مندوبة أيضاً، وإذا عزم العبد على الخلوة والعزلة فلا بد له من مراعاة آدابها ليصل إلى الثمرة الحقيقية التي من أجلها اختار الخلوة على الصحبة، فينعكس ذلك على جوارحه، وقلبه.

2- آداب الخلوة والعزلة:

1- أن يجمع من العلوم ما يعزز به عقيدته، حتى لا يستولي عليه الشيطان بوساوسه (القشيري، الرسالة القشيرية، 1966، 102) فإذا كان جاهلاً بأحكام الله تعالى غير قوي العقيدة سهل على الشيطان إضلاله، فيأتي من الأفعال السيئة ما يظنه حسناً. ولقد عبر الغزالي عن هذا الشرط بأن "على صاحب الخلوة والعزلة أن يعلم الحق والباطل" (الغزالي، منهاج العارفين، منهاج العارفين، 1996، 81)

2- أن يكون ملماً بعلوم الشرع على ما يؤدي به فرضه، ليكون أساس أمره على قاعدة محكمة، فيعرف كيفية أداء العبادة وأحكامها، فتكون عبادته عن علم لا عن جهل.

3- أن يعتزل الصفات المذمومة من نفسه وأخلاقه السيئة، لأن العزلة للتبديل لا للبعد عن الأوطان (القشيري، الرسالة القشيرية، 1966، 102).

4- أن يعتقد العبد باعتزاله وخلوته سلامة الخلق شره، ولا يقصد سلامته من شر الناس، وبينهما فرق! لأن في الأولى استصغاره لنفسه واعترافه بذنوبه وآفاته، أما الثانية فتعني أن له مزية على غيره من الخلق، فينوي بخلوته وعزلته أن يريح الناس من شره، لا أن يستريح عن شر الناس، وهذا تواضع (القشيري، الرسالة القشيرية، 1966، 102).

5- كثرة ذكر الله تعالى وطاعته، ولذلك يرى الصوفية أن من اختار الخلوة على الصحبة، ينبغي أن يكون خالياً من جميع الأذكار، إلا ذكر ربه، وخالياً من جميع الإرادات إلا رضا ربه (القشيري، الرسالة القشيرية، 1966، 102).

هذه هي الآداب التي ينبغي أن يراعيها المرید حينما يختار الخلوة والعزلة، حتى لا يُفتن في دينه، ويُعجب بعمله، فتوقعه خلوته في فتنة أو بلية، وقد لخص الغزالي ما يحتاج إليه صاحب الخلوة والعزلة من آداب وهي: "علم الحق والباطل، والزهد، واختيار الشدة، واغتنام الخلوة والسلامة، والنظر في العواقب، وأن يرى غيره أفضل منه ويعزل عن الناس شره، ولا يعتزل عن العمل، فإن الفراغ بلاء، ولا يعجب بما هو فيه، ويخلو بنيته من الفضول، ويقطع ما يقطع بما هو فيه" (الغزالي، منهاج العارفين، منهاج العارفين، 1996، 81).

نقول: إذا تحقق العبد من هذه الآداب أدرك تلك الفوائد السابق ذكرها للخلوة والعزلة، وساعده ذلك على مجاهدة نفسه، وتهذيب أخلاقه، والسيطرة على جوارحه وحواسه، بحبسها وقطمها عن مألوفاتها وسيء طبعها، ومما سبق تبين لنا أهمية الخلوة والعزلة للمريد السالك طريق الاستقامة والطاعة؛ حتى يستطيع السيطرة والتغلب على شهواته، ويجاهد نفسه، فيسلم دينه، ويطمئن قلبه، ويتعد عن الشواغل الدنيوية، وينتظم في العبادة والذكر للخالق جل وعلا، ويبعد عن الناس شره، ويتجنب شرورهم، وبذلك تترقى نفسه.

مقارنة بين المنهجين في الخلوة والعزلة

نكاد لا نرى في المنهج الفلسفي من يجعل الخلوة والعزلة أحد أركان مجاهدة النفس، ذلك أنه كما هو معروف أن مجاهدة النفس عندهم لا تكون بالأعمال البدنية فحسب، ولكن بالنظر والتأمل العقلي أيضاً، ومن هنا لم يركزوا على جانب الاعتزال والخلوة كما ركز عليها الصوفية وجعلوها أحد آدابهم التي يعرفون بها، وأحد أركان مجاهدة النفس عندهم، وكل ما ذكر في هذا المطلب عن الخلوة والعزلة إنما من كلام الصوفية، لأنهم ما رسوا هذا عملياً وحثوا أتباعهم عليه، ووجدوا فيه الخير وراحة للنفس والحواس عن كل ما يشغلها عن طاعة الله وإذا نظرنا إلى المنهج الصوفي في هذا الركن نجد أن الخلوة والعزلة لها فوائد كثيرة تعود على السالك مثل: فراغ القلب من الشواغل الدنيوية، وسقوط حقوق الخلق لأنه في العزلة عن الناس، الإخلاص في العمل حيث لا يطلع عليه أحد إلا الله وفيها أيضاً كسر سلاح الشيطان، ولكن على المسلم الذي يمارس الخلوة والعزلة ألا يعتزل ويخلو طوال الوقت، بل عليه من حضور الجمع والجماعات وتشجيع الجنائز وزيارة المريض والسعي والعمل، وطلب العلم.

أما أن يعتزل ويخلو في مكان لا يخرج منه أبداً فهذا لم يرد شرعاً وإن كان بعض الصوفية يرون أن هذه الخلوة والعزلة على هذه الكيفية له أثره الفعال في مجاهدة النفس ورياضتها وهو أسلوب تأديب وردع لشوارد النفس والشهوات والجوارح التي يمارسها العبد فترة من الزمن حتى يسيطر على نفسه، وعلى المسلم أن يخلو بنفسه ولو ساعات قليلة بين الحين والآخر ليحاسب فيها نفسه فيستدرك ما قصر، ويستغفر ربه فيما فرط من ذنب وتقصير، ويستنهض الهمة في مواصلة العمل والعبادة لله تعالى، وفي هذا ولغيره تكمن أهمية الخلوة والعزلة في مجاهدة النفس لتصل إلى تهذيبها.

الخاتمة وأهم النتائج:

مما سبق نستنتج أن الانسان في أشد الحاجة لأن يعرف نفسه على حقيقتها، ويعالج غرورها ومكرها وآفاتها، وأن النفس التي بين جنبيه قد تقوده إلى أسوأ المنازل، إذا ما اتبع شهوات نفسه وأطاع هواها

- ووافق مرادها، ولقد رأينا منهج الصوفية والفلاسفة في مجاهدة النفس وإيضاح أهم آفاتهما، وقد استنتجنا أن منهج الصوفية متفق مع منهج الفلاسفة في معظم أجزاء البحث، وهذه أهم النتائج:
- 1- إن مجاهدة النفس باب عظيم من أبواب الخير، فإن وفق العبد فيه فاز وريح ربحاً لا خسارة بعده أبداً، وإن عجز وغلب خسر خسراناً عظيماً، كما إن معرفة النفس وعيوبها واجبٌ حتمي، وهو أمر مهم بالنسبة للمرء المسلم، الذي يسعى نحو تغيير أخلاقه السيئة بأخلاق حميدة.
 - 2- معرفة فضائل النفس والتخلي بها، ومجاهدة النفس التي دعا إليها الإسلام وحث عليها، وإن أخذ النفس بالأداب، والتخلي بالأخلاق الحميدة يأتي أولاً بالتكليف والتعود، ويُسمى ذلك بمجاهدة النفس.
 - 3- اتباع منهج المسلمين في رياضة النفس ومجاهدتها، كما أن تهذيب النفس أمرٌ ليس بالمستحيل بالاستقامة، وصفاء النية، وهذا بدوره يوصل الإنسان إلى سعادة الدنيا والآخرة.
 - 4- انه لا تعارض بين المنهجين، في مدى أهمية المجاهدة عند كل من الفلاسفة والصوفية محل الدراسة وإن اختلفت المناهج.

المصادر والمراجع:

أولاً: القرآن الكريم .

ثانياً: السنة النبوية.

- 1- أحمد بن حنبل، المسند، تحقيق/ السيد أبو المعاطي، ط1، عالم الكتب، بيروت لبنان، سنة1998م.
- 2- البخاري، الصحيح، تح/ مصطفى البغا، دار ابن كثير، بيروت لبنان، ط3، سنة1987م.
- 3- البيهقي، شعب الايمان، تحقيق/ عبد العلي حامد، مكتبة الرشد، السعودية، الرياض، ط1، سنة2003م.
- 4- الترمذي، السنن، تحقيق/ أحمد شاکر، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، ط1، سنة1977م.
- 5- الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، سنة1990م.
- 6- أبو داود، السنن، تحقيق/ عزت عبيد، وعادل السيد، دار ابن حزم، بيروت لبنان، ط1، سنة1997م.
- 7- ابن ماجة، السنن، تحقيق/ أحمد شاکر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، مصر، ط1، سنة1986م.
- 8- الطبراني، المعجم الكبير، تحقيق/حمدي عبد المجيد، مكتبة العلوم والحكم، الموصل العراق، ط2، سنة 1983م.
- 9- مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الآداب، دار عالم الكتب، الرياض، السعودية، ط1، سنة2003م.
- 10- مسلم، الصحيح، تحقيق/أحمد شمس الدين، الدار العلمية بيروت، ط1، سنة 1998م، 199/7.

- 11- النسائي، السنن الكبرى، تحقيق/ د. عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، سنة1991م.

ثالثاً: المصادر والمراجع:

- 1- الاصفهاني، الذريعة إلى مكارم الشريعة، ت/ أبو اليزيد العجمي، ط2، دار الوفاء، المنصورة مصر، سنة1987م.
- 2- ابو بكر الجزائري، منهاج المسلم، المكتبة التراث، القاهرة، مصر، ط2، سنة1986م.
- 3- إخوان الصفاء، ت/ الزركلي، ط1، المطبعة التجارية، مصر القاهرة، 1982م.
- 4- امام حقيقي سيدة الآراء الكلامية والصوفية للقشيري، رسالة ماجستير، كلية دار العلوم ، 1997م.
- 5- الجرجاني، التعريفات، دار الفكر العربي، بيروت لبنان، ط1، سنة2005م.
- 6- زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الآداب والأخلاق، المكتبة العصرية، بيروت لبنان، بدون تاريخ.
- 7- سعيد حو، تربيته الروحية، دار السلام، القاهرة مصر، ط6، سنة1999م.
- 8- ابن سينا: رسالة في الأخلاق، ط كردستان العلمية، دون تاريخ.
- 9- ابن سينا، تسع رسائل في الحكمة، دار العرب، القاهرة مصر، 1980م.
- 10- السلمى، جوامع آداب الصوفية، دار الكلم، القاهرة مصر، ط1، سنة1999م.
- 11-.....، رسالة منهاج العارفين، ت/ سليمان اتش، ط1، بيروت لبنان، 1986م.
- 12- ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، للنشر، بيروت لبنان، ط2، سنة 1992م.
- 13- عامر النجار، التصوف النفسي، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة مصر، ط1، سنة2002م.
- 14- عبد العزيز عزت، مسكويه وفلسفته الأخلاقية ومصادرها، طبعة عيسى الحلبي، القاهرة مصر، ط1، سنة1946م.
- 15- عبد الأمير شمس الدين، المذهب التربوي عند ابن سينا، الشركة العالمية للكتاب، ط1، بيروت لبنان، سنة1998م.
- 16- عبد الحميد مذكور، أبو طالب المكي ومنهجه الصوفي، رسالة ماجستير، كلية دار العلوم، 1972م.
- 17- عبد المقصود عبد الغنى، النظرية الخلفية في الإسلام، دار الثقافة العربية، ط1 ، 1991م.
- 18- الغزالي، الإحياء، دار السلام، القاهرة، مصر، ط5، سنة2007م.
- 19-.....، ثلاث رسائل في المعرفة، تحقيق: الدكتور محمود حمدي زقزوق، مكتبة الأزهر، ط1، 1979م.
- 20-.....، رسالة منهاج العابدين، دار المنهاج، بيروت لبنان، ط1، سنة2006م.
- 21-.....، رسالة روضة الطالبين ضمن مجموعة رسائله ، ط1، دار الكتب العلمية. بيروت لبنان، 1996م.
- 22- القشيري، الرسالة القشيرية، تحقيق/ عبد الحليم محمود، دار التأليف، ط، سنة1966م.
- 23-.....، لطائف الإشارات، تحقيق د. إبراهيم البسيوني، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ط2، 1971م.

- 24- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الغد العربي، القاهرة مصر، ط2، سنة 1996م.
- 25- كوكب عامر، التصوف عند ابن سينا، رسالة دكتوراه، كلية بنات عين شمس عام 1981م.
- 26- الماوردي، أدب الدنيا والدين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، سنة 1987م.
- 27-، نصيحة الملوك، ت: فؤاد عبد المنعم، ط1، مؤسسة شباب الجامعة، مصر، الاسكندرية، 1988م.
- 28- محمد صلاح عبده: جهود أبي عبد الرحمن السلمي في التصوف، رسالة ماجستير، كلية أصول الدين، القاهرة مصر، 1991م.
- 29- مسكويه، التهذيب، دار السعادة، بيروت لبنان، ط1، سنة 1985م.
- 30-، رسالة النفس والعقل، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة مصر، ط1، سنة 2001م.
- 31-، الفوز الأصغر، ط السعادة، بيروت لبنان، سنة 1325هـ.
- 32- المكي، قوت القلوب، تحقيق/ عامر النجار، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط2، سنة 2007م.
- 33- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، مصر، ط2، سنة 1985م.

Self-Struggle and its Impact on Moral Refinement between the Philosophical and Sufism Approaches

Noureddine Ashour Ahmed Aldoukali
ALAsmarya Islamic University -ZLiten

Abstract

The study aims to combat the moral ailments and deviations that afflict the soul, or more precisely, the deviation from the state of balance. It also seeks to clarify a set of devotions and actions that enable a person to struggle against oneself and then provide effective treatment so that the soul submits to good and abstains from its evils, becoming an intellectual essence similar to the realm of truth, thus reaching the level of perfection sought by both the philosopher and the Sufi.

The study also aims to establish a principle that man is capable of struggling against oneself to elevate to higher levels, which is intellectual contemplation.

In this study, the descriptive, analytical, and comparative method was used to explore some of the heritage of philosophers and Sufis, and to present the thoughts related to this study primarily, and to show verses and hadiths.

the study concluded with several conclusions, most notably: the human being is in dire need of knowing oneself and delving into its depths to struggle and refine it and bring it back to the right path, and this can only be achieved through self-struggle, which is both internal and external. Both types have an educational and constructive role for humans. The study also attempted to prove that self-struggle does not mean deprivation of divine blessings and the elimination of legitimate material tendencies, but rather means limiting them and taking control. It reached the conclusion that the philosophers' approach differs from the Sufis' approach in some parts of the study.

Keywords: Self-struggle - Sufism and philosophers - behavior - struggle -refinement-excessiveness and negligence